الزوار ما شاء الله لهم أن يجلسوا؛ فعليهم أن يراعوا في طول الجلسة وقصرها حالة المضيف، فيخففوا إذا رأوه متوعكًا أو مشغولاً، ويطيلوا إنْ رأوا منه شوقًا إليهم، وإذا نهضوا للانصراف استحب أن يدعو بالدعاء الذي تغفر به سقطات اللسان في المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**».

ومن آداب الزيارة والمجالسة ألا ينسى الزائرون والمتجالسون ذكر الله، فيصرفوا كل وقتهم في هذر أو مزاح أو لغو؛ ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله -تعالى- فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة**».

وعلى الجملة؛ فإن أهم أمر من أمور الزيارة أن تكون في الله ولله ولتقوية أواصر الإخاء الإسلامي، ولتأكيد محبة الله للمتزاورين فيه والمتجالسين في مرضاته؛ لأن الله ﷻ يحبُّ لعباده المؤمنين أن يحرصوا على كلِّ وسيلة توثِّق بينهم الإخوة فيه والتحبب في ذاته.

الصداقة وآدابها

لعل من أعظم نعم الله على العبد أن يرزقه أصدقاء صالحين يعينون على الخير والحق، ويردونه عن الشر والباطل، ويخلصون ودادهم له في الشدة والرخاء وفي الضراء والسراء.. إنَّ مثل هؤلاء هم كنز العمر وهم متعة الحياة، ولا غرو فقد وصف الله أهل الجنة بأن جميعهم فيها إخوان يحبون أن يجلسوا متقابلين ليتمتع كل منهم بمحيا أخيه وإشراق وجهه، قال الله -تعالى- في سورة «الحجر»: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ**﴾.

على أن الصداقة سلاح ذو حدين، فمن الصداقة ما هو نعم عظيمة، ومنها ما هو ويلات جسيمة، ثم إن الصداقة هي واجهة المرء تعرف بها أخلاقه؛ لأن كل قرين يقتدي بقرينه، والخليل يعرف بخليله، والمتآخون بجلال الله على منابر من نور، يغبطهم عليها الأبرار.

ومن السُّنة اتخاذ الأصدقاء، فقد كان لرسول الله ﷺ صحاب وأحباب في الله يضيق بهم الحصر، وكان في مقدمتهم أبو بكر الصديق الذي ذكر في كتاب الله -جلَّ وعلا- بلفظ صاحب: ﴿**إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾.

وهذه بعض الأحاديث في الصداقة وآدابها نوردها ثم نذكر ما تيسر من آداب الصحبة:

- روى أحمد -رحمه الله- عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ نهى عن الوحدة أن يبيت الرجل وحده أو يسافر وحده.

- وفي سنن أبي داود والترمذي وموطأ مالك من حديث عمرو بن شعيب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة ركب**».

- وروى أصحاب السير أن النبي ﷺ حين وصل المدينة آخى بين الأوس والخزرج، وسماهم الأنصار ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أصبح المسلمون أصدقاء متحابين في الله، فغاظ ذلك المنافقين واليهود والمشركين.

- وفي سنن أبي داود والترمذي قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه؛ فليخبره أنه يحبه**».

- وفي حديث آخر لأبي داود عَن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنِّي لأُحِبُّ هَذَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**». قَالَ: لاَ، قَالَ: «**أَعْلِمْهُ**». قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي الله، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ.

- وروى مالك أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «**وجبت محبتي للمتحابين فيَّ والمتجالسين فيَّ والمتزاورين فيَّ والمتباذلين فيَّ**».

- وفي صحيح البخاري أن امرأة مزَّاحة قدمت من مكة، فنزلت على نظيرة لها كثيرة المزاح بالمدينة، فقالت عائشة -رضي الله عنها- قال ﷺ: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تنافر منها اختلف**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**»، وفيهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ذكر السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ومن بينهم رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه.

- وفي صحيح مسلم: «**إنَّ الله تعالى يقول يوم القيامة: «أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظل إلا ظلي»**».

أولاً: الأصدقاء الصالحون من أعظم ذخائر الحياة؛ لأنهم نعم المستشار في الحيرة، ونعم العون في الشدة، ونعم المساعد على الطاعة، ونعم الرادع عن المهالك، ونعم النور المؤنس في ظلام الوحشة.

ومن ثم، فالعاقل يتلمس الصديق الصالح والجليس الطيب، فلا يفتأ مسرورًا به كأنما هو عند بائع المسك، وإذا كان الأخلاء الأشرار يتحولون في الآخرة أعداءً، فإن المتحابين بجلال الله يبعثون أصدقاء؛ لأنهم أولياء الله، ومن ثم فلا يخافون في يوم الحساب ولا يحزنون، ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [يونس: ٦٢].

ثانيًا: الصاحب بالجنب هو صديق السفر وصداقة السفر متعة لا تنسى، وخصوصًا إذا كان سفرًا في طاعة الله كالحج والعمرة وزيارة مسجد الرسول ﷺ وزيارة المسجد الأقصى والجهاد في سبيل الله، ومثل هذه الزيارة يزكيها ربنا ويزيدها ثباتًا؛ لأنها نمت في ظلال طاعة الله -تعالى- وحبه.

ثالثًا: ومن آداب الصداقة ما ذكره أشياخنا ممن ألفوا في الآداب الشرعية -رحمهم الله:

- فمن ذلك أن تكون صداقتك في الله، فتختار أهل الدين وتقرب الصالحين، وألا تخص بصداقتك فاسقًا عاصيًا لربه؛ لأن مثل هذا لا يمكن أن يصدر عن خير، إذ لو كان فيه خير لكان له خير في التعامل مع خالقه الذي وهبه كل النعم.

إنَّ الذي لا يحترم أمر ربه المنعم المتفضل لا يمكن أن يكون لديه أي شرف في المعاملة وأي وفاء للصداقة، وإلى هذا أشار النبي الكريم ﷺ في قوله: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- أن يكون الصديق عاقلاً راجح الحلم غير نزق ولا أحمق ولا شديد الحرص على الدنيا، فإن الأحمق والبخيل أخطر الأصدقاء إذا الأول لا يزال يورطك بنزقه وحماقته، والثاني يسخرك لمشكلات حرصه وبخله، أما العاقل والكريم فيفيدك أولهما برأيه وصدق مشورته،

ويعلِّمك الثاني كرم النفس وحسن التوكل.

- واختر صديقك ذا نفس منبسطة لا عقد فيها ولا تكلف، ما أجمل أن يزورك صديق فيقول لك: لقد خرجت مبكرًا فلم أفطر، فهل من لقمة عاجلة؟! زار أحد الصالحين صديقًا له فقال لخادمته: أخرجي لي كيس أخي، فإني أحتاج بعض المال، فأخرجته فأخذ منه درهمين ودعا لصديقه بخير، فلما رجع الصديق إلى بيته وأخبرته الجارية قال لها: أنت حرة لوجه الله.

إنَّ الصديق الطيب النفس البسيط السمت يلتمس لك المعاذير بينما المتكلف الكز يبتكر لك الذنوب.

- واحذر من الأصدقاء كثير الجدل والأناني والمعجب بنفسه، فمثل هؤلاء يعرضون الصداقة كل يوم للزوال؛ لأن من أردأ أخلاق الصديق المماراة والأنانية والغرور، إذ هي تعصف بالصداقة في كلِّ حين.

- ومن أجمل صفات الصديق الوفاء الذي يجعله حاضرًا لك في الرخاء والشدة، روي أن رسول الله ﷺ أقبل على عجوز يجاملها ويسألها ويكرمها، وهو يقول لعائشة: «**هذه كانت تأتينا أيام خديجة**».

- فإذا رزقك الله الصديق المؤمن الوفي الدين؛ فاعلم أن له عليك حقوقًا، وهي أن تقوم بحوائجه دون سؤال، وتتفقد عياله بعد موته، وتسكت عن عيوبه، وتدافع عنه في غيبته، فإذا خلوت إليه نصحته خاليًا، وأن تدعو له شاهدًا وغائبًا وحيًّا وميتًا، فإن دعواتك له هي هدايا حسنات.

الصديق الصالح

ما أجمل أن يهيئ الله لك رفقة مسعفة، وجلساء من الفضلاء تقتبس من آدابهم، وتنالك البركة بصلاحهم، وينفعك الله بدعائهم، إنْ أخطأت سددوك، وإنْ عثرت أقالوك، وإنْ أحسنت أعانوك.. إنَّ صحبة من هذا النوع هي كنز تنال به خير الدارين، نعم إنك بصحبة الأخيار تتزود أكرم الزاد، وتحظى بسعادة المعاش والمعاد.

الصالحون وأهل الفضل لا يشقى جليسهم؛ لأنه لا يفتأ يسمع منهم الكلم الطيب، ويرى العمل الصالح، فيتعلم سمو القول، ويأتسى بصالح العمل، وإذا لم تستطع مناقشتهم في إخلاص العبادة لله وطول السهر في جنب الله، فلا يحملك ذلك على هجرهم خجلاً من قصورك، فإن المرء مع من أحب، جاء في الصحيحين أنه قيل لرسول الله ﷺ: «الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم». فقال: «**المرء مع من أحب**».. ما أروعها من كلمات أربع «**المرء مع من أحب**» كلمات بليغة من أسمى إيجاز القصر.. حكمة نبوية تؤدي بنا أن نحكم حبنا ونجعله تبعًا لما جاء به رسولنا وديننا وكتابنا، فلا نحب إلا ما يحبه الله ورسوله، وألا نتخذ بطانات لا تألونا خداعًا وخبالاً.

إنَّ عمل الدنيا صورة من مشاهد الآخرة ومجالسة في الدنيا هي صورة من مجالسه في الآخرة، ومن ثم كانت مجالسة الأشقياء في الدنيا حسرات مؤلمة، صوَّرها ربنا في محكم آياته؛ إذ يقول في سورة «الفرقان»: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً**﴾، يتحسر الظالم على أن لم يجعل طريقه هي طريقة رسول الله ﷺ، ويتحسر على أن جعل صداقته ومجالسه لفلان وفلان من الضالين المضلين الذين حرفوه إلى طريق الضلال، ثم خذلوه فيها شقيًا نادمًا.

- «**المرء مع من أحب**» وصية نبوية كريمة ألا تجالس إلا أهل الصلاح ومخافة الله؛ فهؤلاء يكونون بإذن الله شفعاء يوم القيامة، يرتضي الله لهم أن يشفعوا وهم بحول الله لا يشقى محبهم، ولا يخذلهم جليسهم، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

- وقد كنت أنصح بعض أصدقائنا ألا يترددوا على مجالس لهو وغيبة وعبث، فيقولون: نحن نجالسهم لكننا لا نشاركهم في لغوهم، فقط نستمع ونتسلى، وربما عرفنا منهم من أخبار الناس ما لم نكن نعرف، وما دروا أن جلساء المرء في معاشه هم جلساؤه في معاده؛ فكيف إذا حشرهم الله مع أولئك الخاسرين؟! نعم سيرون في الآخرة أن جليس بائع المسك قد نال من نفحات مسكه، وأن جليس نافخ الكير قد نال من لفحات ناره.

إنَّ من يجالس المغتابين لا بدَّ أن يغتاب، ومن يجالس السكارى يخشى عليه أن يسكر معهم، ومن أدمن مجالسة قوم، فقد تنسجم روحه مع أرواحهم وتتعارف الأرواح، وعندئذٍ تأتلف روحه معهم، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**».. فاحذر -يا أخي- على روحك أن تأتلف أرواح الأشرار.

- وإذا جالست العلماء، فاخدمهم وتواضع لفضلهم، أرأيت إلى موسى عليه السلام وهو شيخ أنبياء بني إسرائيل، كيف حرص على لقاء العبد الصالح عند مجمع البحرين، ولما وجده هناك عرض عليه أن يكون تابعًا له، ليتعلم من علمه رشدًا، ثم لما اشترط العبد الصالح عليه شرط قال: ﴿**سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا**﴾، وكان موسى عليه السلام كلما وقع في الخطأ اعتذر اعتذار التلميذ المؤدب لشيخه الفاضل.

إنَّ تواضعك للعالم وطول صبرك على مجالسة يخرج لك خبايا كنوزه، وينفعك من بركات دعائه، وينفعك بشذا روضه، وحسبك أن مجلسك مع العلماء الأفاضل تحف به الملائكة وتغشاه الرحمة ويذكرك ربك عندئذٍ في ملئه الأعلى، روى مسلم -رحمه الله- أن أبا بكر رضي الله عنه قال لعمر: انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها، وأم أيمن كانت أمة لأبي لهب فأعتقها وصارت حاضنة لرسول الله ﷺ، وكان النبي الكريم يحترمها ويزورها، وقد زوَّجها زيد بن حارثة وولدت له أسامة، وكان ﷺ يقول: «**أم أيمن أمي**».

فلما انتهى أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- إليها بكت، فقالا لها يعزيانها: ما يبكيك، أما علمت أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟! فقالت: لست أبكي لهذا، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان، وربحا من مجلسهما تلك الدموع التي تحرم بإذن الله أعينهما على النار، قال رسول الله ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله**».

العاقل يختار في حياته مصاحبة أهل الدين، وإذا أراد الزواج اختار ذات الدين ليحظى بصحبتها وصحبة أهلها الصالحين، وإذا أراد أن يسكن بيتًا سأل عن قربه من المسجد وعن الجيرة المؤمنين، وإذا اتخذ أصدقاء اختار معتادي مساجد الله، وبذلك يضمن بفضل الله أن

يكون في آخرته مع القوم الصالحين، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**».

لقد كان رسول الله ﷺ يطلب الدعاء ممن يتوسم فيه الصلاح، ففي الحديث أن عمر ﷺ جاء يستأذن رسول الله ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: «**لا تنسنا يا أخي من دعائك**»، وكان عمر ﷺ يطلب من أويس القرني ﷺ أن يستغفر له، وكان النبي -عليه الصلاة والسلام- يرى أحيانًا وهو متوجه إلى مسجد قباء ليرى المسجد وعمَّاره الذين يحبون أن يتطهروا.

إنَّ خطواتك لزيارة إخوانك الصالحين حسنات تباركها الملائكة، وهي تقول لك: «**طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً**»، فاحرص -يا أخي- على مجالسة الصالحين ومصادقتهم.. إنك عندئذٍ تذوق حلاوة الإيمان في الدنيا، وستنعم -إنْ شاء الله- بأنس المحبة في الدنيا والآخرة، وحين يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه سترى أصدقاءك الصالحين هم وصاحبته أصدقاءك المؤنسين في هول الموقف لا يخذلونك ولا يتخلون عنك، يقول الله ﷻ يصف هول الحساب في سورة «الزخرف»: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ۞ يَا عِبَادِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلاَ أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ**﴾.

الصفح والمسامحة

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله العفو الغفور والحكيم القدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله البشير النذير والسراج المنير. اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه من كل ذي عزم عظيم وقلب كبير.

من الآداب النبوية التي حرص عليها رسول الله ﷺ الإغضاء والمصانعة وتجاهل الزلة والتماس العذر، وبذلك كثر محبوه وقلَّ شانئوه، ورسخت في قلوب الناس مودته، وطابت لدى الناس أحدوثته.. كان -عليه الصلاة والسلام- يشرب الناس على القذى، ويتحمل منهم صنوف الأذى، ثم هو لا يكثر المعاتبة ولا يختار المجانبة، وكان -عليه الصلاة والسلام- يعلم أن الكمال لله وحده، وأن العصمة لأنبيائه الكرام، وأن الإنسان من طين وماء، ومن ثم

فهو يصفو ويعتكر، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ عظيم التجمل رائع التحمل يتناسى الإساءة حتى ينساها، وكان قليل العتاب كثير السماح، حتى لقد كان يستغفر للمنافقين إذا اعتذروا متجاهلاً مكرهم وسوء مواقفهم.

لقد كان يعلم أن الاستغفار للكافر المجرم لا يجدي ما دام ذلك الكافر يطوي نواياه الخبيثة على السوء والكفر والإجرام، وإذن فليأخذ بظاهر القول، وليلبس كبير المنافقين قميصه، وليصل عليه ما دام في ذلك جبر لكسر ابنه المؤمن، وما دام ربنا ﷻ يبلو السرائر، ولا تخفى عليه خافية، لقد قال له ربه في سورة التوبة: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَّغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾، وبخاصة التغاضي وترك التشدد والعتاب ونبذ الجدل العقيم وبلين الجانب وجميل الرد -تألفت من حوله القلوب واستحق أن ينال ثناء ربه في قوله تعالى من سورة «آل عمران»: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.

في يوم فتح مكة اغتاظ أحد المشركين واسمه فضالة بن عمرو حين رأى حطام الأصنام، ورأى بلالاً يصعد إلى سطح البيت الحرام؛ لينادي بدعوة الله التامة إلى عباد الله وحده، فخبَّأ تحت عباءته سيفًا قصيرًا، وتوجه إلى رسول الله ﷺ يريد قتله انتقامًا للآلهة، وأقبل على رسول الله ﷺ وهو يتمتم ليوهمه أنه يسبِّح، فبادره النبي ﷺ ونزع ما كان يخفيه، ووضع يده الكريمة على صدره، وهو يقول: «**اللهم اهد فضالة، وحبِّب إليه الإيمان**»، قال فضالة: فوالله ما رفع يده عن صدري، وعلى ظهر الأرض من هو أحب إليَّ منه.. لم يلمه رسول الله ﷺ ولا عنَّفه بتوبيخ قاسٍ، فأسلم إسلامًا عميق الجذور ظهرت آثاره حالاً، فلقد روي أن فضالة هذا عاد إلى بيته، ويبدو أنه كان في الجاهلية صاحب مغامرات غرامية، فتعرضت له إحدى صواحبه ليجلس إليها، ويحادثها أحاديث الهوى، فردَّ عليها بأبيات تفيض إيمانًا:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليَّ الله والإسلام
لو قد رأيت محمدًا وصحابه ... والفتح حيث تحطم الأصنام
لرأيت دين الله أضحى مشرقًا ... والشرك يعلو وجهه الإظلام

ومن المعروف أن رسول الله ﷺ أوذي في الله فما حقد ولا أحصى على قومه أذاهم، وكان لا يلقي الناس إلا باشًّا، وحتى حين استقبل صناديد الشرك من أهل مكة شملهم بالتغاضي ولم يذكرهم بمواقفهم الشرسة من الإسلام.

كان شعاره أن التوبة تجب ما قبلها وتغسل الذنوب، وأن الإسلام يجب ما قبله، ويرجع الإنسان كيوم ولدته أمه، ومن ثم فقد كان -عليه الصلاة والسلام- يحترم التائبين ولا يؤيسهم من رحمة الله.

كان -عليه الصلاة والسلام- أبعد الناس عن الهجر والجفوة والقطيعة، وكان أوصل الناس للرحم وأصفح الناس عن الزلة، ولا غرو فالمؤمن مأمور أن يصل من قطعه، ويعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

ولقد علَّمنا رسولنا ﷺ أن نلتمس للصديق أعذارًا كثيرةً قبل أن نؤاخذه وندينه، ولقد بلغ من حلم الأحنف بن قيس -رحمه الله- أنه قال: لا يسود المرء قومه حتى يوطن نفسه أن يتجرع الذل من أجلهم، ويتحمل الهوان لعزتهم، وما أجمل قول أبي تمام في شروط السيادة:

لَيسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَومِهِ ... لَكِنَّ سَيِّدَ قَومِهِ المُتَغابي

ومن أحلى قول معد بن أوس يصف إغضاءه عن إساءات قريب له، فيقول:

يحاول رغمي لا يحاول غيره ... وكالموت عندي أن يحل به الرغم
فما زلت في ليني له وتعطفي ... عليه كما تحنو على الولد الأم
لأستل منه الضغن حتى استلله ... وقد كان ذا ضغن يضيق به الحلم

وشبيه بهذه الحكمة الجليلة قول المقنع الكندي من أبيات يحسن أن يحفظها كل طموح إلى سيادة قومه

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس كبير القوم من يحمل الحقدا

إنَّ مِن الناس مَن ينسى الإساءة من ساعته، ويدعو للمسيء بالهداية في غيبته، بل إنه ليرد الإساءة بالإحسان، بينما تجد من الناس من لا ينسى الإساءة أبدًا، بل يخزنها في قلبه حتى

يتقيح بالأحقاد، والحق أن الإسلام يكره ذلك، وقد كان رسول الله ﷺ يكره أن ينقل إليه شيء من هفوات أصحابه حتى لا يشغل قلبه بأي حقد؛ ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**تفتح أبواب الجنة كل يوم اثنين وخميس**»، وفي رواية: «**تعرض الأعمال في كلِّ اثنين وخميس، فيغفر الله ﷻ لكلِّ عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجل كان بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا**».

وحدث أن قصد أحد الفقراء رجلاً محسنًا وطلب منه أن يفرِّج كربه، فتأملت زوجة المحسن وجه الفقير، وإذا هو ممن كانوا يسيئون إلى زوجها ويشتمونه لعثاره، ولشدة ما كانت دهشتها حين رأت زوجها يسارع لقضاء حاجة الرجل، ويهوِّن عليه شدته، ولما لامت زوجها على نسيانه لإساءات عدوه قال لها: لقد عوَّدني ربي عادات من كرمه أن يفرِّج عني كل كربة، ويكشف عني كل غمة، وأنا تعوَّدت أن أرد الإساءة بالإحسان، وأدفع الظلم بالمغفرة، وأخشى إذا غيَّرت عادتي مع ربي من الصفح الجميل والإغضاء الكريم أن يغيِّر عادته معي من الستر والعافية وتفريج الكروب وحلال الرزق.

جاء في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**يطلع الله إلى أهل الأرض ليلة النصف من شعبان، فيغفر للمؤمنين ويمهل الكافرين، ويدع أهل الحقد بحقدهم حتى يدعوه**»، وفي أحد مجالسه -عليه الصلاة والسلام- قال: «**يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فدخل رجل من الأنصار وكرَّرها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني والثالث، والأنصاري نفسه يدخل، فتتبعه ابن عمر واحتال حتى بات عنده، فلم ير له زيادة عبادة لكنه علم منه أنه ما بات ليل يبيت في صدره غلاً أو حقدًا أو كراهيةً لإنسان.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾.

***

من أحاديث الآداب

المسامحة والمياسرة

من أجمل آداب المؤمن أدب يحببه للنفوس، ويدنيه من القلوب، ويجمع حوله الأصدقاء، ويحميه -بإذن الله- من مكائد الأعداء.. هذا الأدب هو المسامحة والمياسرة؛ فالمؤمن على كافة أحواله سمح القياد للمعروف، تلقاه دوامًا ميسرًا متجاوزًا غير معسرٍ ولا متشدد عاملاً أبدًا بقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا اقتضى**» (أي: طالب بدينه).

والسمح مبشر -بإذن الله- بالستر والعافية ونماء البركة، جاء في «معجم الطبراني» أن رسول ﷺ قال: «**إذا أراد الله بقوم نماءً رزقهم السماحة والعفاف**»، وقد دعا النبي ﷺ بالبركة للرجل الذي يكون سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**ارفعوا وترافقوا، وليسِّر بعضكم على بعض، فلو يعلم طالب الحق ما له في تأخير حقه** (أي: من ثواب لله ﷻ) **لكان الطالب هو الهارب من المطلوب**».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من نفَّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة**»، وأوصى رسول الله ﷺ بالزيادة عند الوزن، روى ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا وزنتم فأرجحوا**».

إنَّ الإنسان اللين المتسامح يبعده الله يوم القيامة عن النار مكافأة له على كرم شمائله وجميل سجاياه، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار غدًا! تحرم على كل هين لين سهل**».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا ولسانه صادقًا ونفسه مطمئنة وخليقته مستقيمة**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل النار.. كل عتل جواظ مستكبر**»، وكلها تعني الإنسان الغليظ الجافي الشرس الطباع.

وفي سنن النسائي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**أدخل الله ﷻ الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا**»، ومعنى (قاضيًا) حين يقضي دينه، و(مقتضيا) حين يطلب دينه.

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**اسمح يسمح لك**»، ومعناه إذا تسامحت مع عباد الله تسامح الله ﷻ في معاملتك.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ، آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ؛ فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي**».

وقد حثَّ النبي ﷺ على التيسير والتبشير، فقال في الحديث الذي رواه الشيخان: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**».

والمسامحة جميلة كريمة العواقب سواء كانت مسامحة عن الزلات أو مسامحة في الحقوق، فالأولى تمثل الحلم والرفق والأناة، والثانية تمثل الكرم والمروءة والمعروف وكلتاهما لازمة في هذه الحياة؛ لأنك إن لم تسمح الزلة ظلت طول حياتك تعبًا عاتبًا ناقمًا؛ إذ الإنسان من طين وماء يصفو ويكدر ويصيب ويخطئ، وإذا أنت لم تشرب الناس على قذاهم، ولم تلمهم على شعثهم فلن تظفر منهم برفيق، ولن يصفو لك وداد صديق.

وأما المسامحة في الحقوق؛ فتكون إما عن معسر، وإما عن مماطل، وهي في كلتا حالتيهما جميلة مريحة؛ إذ الصبر على المعسر صدقة في ميزان أعمال المؤمن، أما الصبر على المماطل؛ فإنه يقيك شره، ويريحك من تعقبه، ومصير الحق أن يعود بإذن الله.

والمسامح -بإذن الله- محبوب على جميع أحواله ومعاملاته؛ لأنه يدفع الحق عن طيب نفس، ثم هو لا يكتفي بدفع الحق، بل يزيد إن كان الحق عليه، ويتجاوز حين يكون الحق عليه، ويتجاوز حين يكون الحق لله.. اشترى الحسن البصري -رحمه الله- ثوبًا بستة دراهم ونصف، فأعطى البائع سبعة، فقال للحسن: إنَّ حقي ستة ونصف، فقال الحسن: أعرف هذا، ولكن وجدت عيبًا أن أقاسمك الدرهم.

وقد عرف كثيرون من علماء السلف الصالح أنهم كانوا يعاملون من يسيء إليهم لا بالصفح فقط، ولكن بالإفضال؛ لأنهم بهذا يصونون أعراضهم، وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: «**ما وقى به المرء عرضه؛ فهو صدقة**».

ولقد كان أسلافنا الكرماء يعطون الشاعر البذيء اللسان، وربما أجزلوا له كالحطيئة وجرير والفرزدق وأبي نواس، ولا يرون بذلك بأسًا ما دام في ذلك العطاء صونًا لأحسابهم وأعراضهم، ثم إن الإفضال والمياسرة والتسامح.. كلُّ هذه تبقى للمرء ذكرًا في حياته وبعد موته، والإنسان في هذه الدنيا سيرة حسنة وذكر صالح.

وفي هذا يقول الشاعر:

المَـرءُ بَعـدَ المَـوتِ أُحدوثَـةٌ ... يَفنـى وَتَبقـى مِنـهُ آثـارُهُ
فَأَحسَـنُ الحـالاتِ حـالُ اِمـرِئٍ ... تَطيـبُ بَعـدَ المَـوتِ أَخبـارُهُ

ولقد تأملت أهل السماحة فوجدتهم عمومًا يتحلون بصفتين: أولهما: أنهم من ذوي الأصول الكريمة التي كانت نشَّأتهم على التجاوز والإيثار، وعلَّمتهم أن قصة الحياة الدنيا قصيرة لا يغتر بها إلا الحمقى، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية؛ حيث الخلود والنعيم لأهل الإيمان والباقيات الصالحات.

أما الصفة الثانية التي يتميز بها أهل التسامح؛ فهي نفوسهم الكبيرة التي تأبى أن تنزل إلى مستويات الطمع الزائل والحرص القاتل والصغار المذل والمهاترة المسقطة للمروءة، فكلما تعارضت مصالحهم الدنيوية مع كرامتهم ضحوا بالمصالح وضنوا بالكرامة، وقد جاء في الأثر وصف للنساء (أي: الزوجات) بأنهن يغلبن الكريم ويغلبهن اللئيم، وذلك لأن الكريم يستحي من الصوت المرتفع والصخب الغوغائي وانتشار القالة، فتراه يفتدي نفسه من كل هذه الأمور ببذل ماله ولطف حلمه، أما اللئيم فلا يبالي بأن يذمه الناس ويتأذى بصوته الجيران وتشيع له ولأسرته أسوأ مقالات السوء، ولهذا فهو يرخص صراخه ومروءته وسمعته من أجل أن يحافظ على درهم أو متاع، ومن أجل هذه الاعتبارات كان رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى في التسامح مع أهله وأقاربه والناس أجمعين.

من أحاديث الآداب

النهي عن التكبر والمفاخرة

قرأنا في سيرة صالحي السلف أنهم كانوا يتصاغرون ليبعدوا بأنفسهم عن الكبر، ففي حجة من حجات عمر ﷺ وقف في مكان من مشارف مكة، وقال لمن معه في هذا المكان: كنت أرعى غنيمات للخطاب، وكان شديدًا -وهو يقصد بذلك أن يحد من غلواء نفسه، ومن قبل عمر ﷺ كان رسول الله ﷺ يقول: «**إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في شعاب مكة**»، ومن هذا القبيل ما فعله أبو بكر حين تولى الخلافة؛ إذ ذهب إلى ديار قوم كان يحلب لهم غنمهم يريد أن يستمر فيم عوَّدهم عليه، والحق أن النفوس الكبيرة لا تحتاج أن تكبر نفسها بالتصنع، لكنها تتعب أجسامها بالعمل الذي هو مقياس عظمة النفوس.

وَإِذا كانَتِ النَّفوسُ كِبارًا تَعِبَت في مُرادِها الأَجسامُ

إنَّ الكبر هو أحد العقد النفسية المهلكة وهو لا يصدر إلا عن نفوس مهزوزة ضعيفة المواهب والأعمال، ثم إن أكثر المتكبرين تجدهم ضعاف العقول، وإلا فكيف يتكبر من أصله نطفة وآخره جيفة، وهو لا يدري ما يصير إليه أمره، ولا ما خبَّأه له قدره، ومبلغ علمه لا يتعدى لحظته التي هو فيها.

إنَّ المؤمن لا يمكن أن يداخل نفسه الكبر؛ لأن الكبرياء هي صفة الله التي لا يجوز أن يشركه فيها مخلوق، جاء في سنن أبي داود فيما يرويه رسولنا عن ربه قال الله -تعالى: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم**»، وإنه لمن المضحكات المبكيات أن ترى عبدًا جالسًا على كرسي وظيفته قد أبطره ذلك المركز الفاني، فهو يتكبر على عباد الله ويرهقهم، وهو يرى نفسه بأم عينه أضعف شيء أمام أحداث الدنيا، فهو ينهار إذا ألم به أدنى ألم أو استبد به أي وهم.

إنَّ ربنا يحبُّ لعبده معالي الأمور وأشرافها، ويكره لعبده حقيرها وسفسافها، لكن عظائم الأمور إنما تكون في الباقيات الصالحات التي هي عند ربنا خير ثوابًا وخير أملاً.

إنَّ أوقح الصفات الذميمة هي صفة الكبر؛ لأنها لا تصدر إلا عن إنسان جاهل حقيقة

نفسه وأصل خلقه، ولهذا لا يغفر الله ﷻ من هذه الصفة مثقال حبة خردل، يقول رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح مسلم: «**لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر**».

وفي سنن الترمذي يقول النبي ﷺ: «**بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى وَنَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ سَهَا وَلَهَا وَنَسِيَ الْمَقَابِرَ وَالْبِلَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ عَتَا وَطَغَى وَنَسِيَ الْمُبْتَدَا وَالْمُنْتَهَى، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بِالدِّينِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ طَمَعٌ يَقُودُهُ، بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ هَوًى يُضِلُّهُ بِئْسَ الْعَبْدُ عَبْدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ**».

ولأن الخيلاء خلق الجبابرة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن دقه وجله، وعن أي مظهر خارجي يوحي به كالإعراض عن الفقير واحتقاره، وكجر الثوب خيلاء، جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**من جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة**»، وحسبك أن يحرم العبد نظرة الله إليه، والنظر إلى الله في الآخرة هو أسمى ما يتمتع به عباد الله الأبرار.

هذا، وإن الكبر هو أقرب الطرق المؤدية إلى الظلم والجبروت، ومن ثم فهو يردي صاحبه في الهالكين، جاء في سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب في الجبارين، فيصيبه ما أصابهم**»، وكما يستقبل المتكبر عباد الله وهو متجهم يستقبله ربه في القيامة وهو عليه غضبان؛ لأن جزاء العبد في الآخرة من جنس عمله، جاء في مسند أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ تعاظم في نفسه واختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان**».

كان -عليه الصلاة والسلام- أحسن الناس تواضعًا وأعظمهم مروءةً وأدبًا، كان يكره أن يقوم له الناس كما تقوم الأعاجم لملوكها، ففي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**من سرَّه أن يمثل له الرجال قيامًا؛ فليتبوأ مقعده من النار**».

هذا، وليس من الكبرياء أن يتخذ المسلم له ثوبًا نظيفًا ونعلاً نظيفًا ويتطيب ويتجمل للقاء الأصدقاء، فقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الأمور فقال: «**إنَّ الله جميل يحب الجمال، ولكن الكبر من سفه الحق، وازدراء الناس**»، كما جاء في مسند أحمد -رحمه الله.

هذا، ولا تحسبن الكبرياء مرتبطة بالغنى والجاه والأرومة، فرب غني عالي المحتد والحسب يلقاك في تواضع عجيب في حين ترى إنسانًا فقيرًا يغمط الحق ويظلم، ومثل هذا تكون عقوبته مضاعفة؛ لأنه لا يملك من مقومات الكبر شيء، وهو مع ذلك يتكبر، ولهذا كان العائل المستكبر ممن لا ينظر الله إليهم يوم القيامة.

هذا، وعلى العبد أن يعلم أن التواضع لا يحط من منزلته، بل إنه -بإذن الله- يزيده علوًا وشرفًا في أعين الخلق، أما الذي يحط من منزلة المرء؛ فهو التعالي على الناس بغير حق، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**حقٌّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**».

هذا، ولرب كبر ضيَّع عمل العاملين وأحبط سعيهم وعصف بحسناتهم على كثرتها، ففي الأثر الذي رواه الديلمي يقول النبي ﷺ: «**إنَّ العجب ليحبط عمل سبعين سنة**».

هذا، وتعظم فظاعة الكبر، فقد جاء في الأثر الذي رواه ابن مردويه أن رسول الله ﷺ قال: «**الفلق سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون، وإن جهنم تتعوذ بالله منه**».

وبعد؛ فإن المؤمن يتحلى بالدماثة والأدب ولين الجانب ورقة الشمائل والتواضع للناس، فينال بهذه الفضائل طيب الأحدوثة في الدنيا ورضاء الله في الآخرة.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

الحيـــــــــاء

من الآداب التي تلازم المؤمن أينما توجه أدب يحبه الله ورسوله، بل هو أدب يتخلق به الله ورسوله، وذكره رسول الله ﷺ بأنه شعبة من الإيمان، وهذا يعني أن الحياء من شارات المؤمن وسماته، وحسبك أن الله ﷻ يستحي من عبده وهو فوق عباده قاهر قادر، يقول شيخ الإسلام ابن القيم في كتابه «مدارج السالكين» ما خلاصته: أما حياء الرب من عبده، فلا تدركه العقول والأفهام، لكنه حياء يمتزج فيه الكرم والبر والجود والجلال، وقد ورد في السُّنة أنه ﷻ يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا، كما ورد أنه ﷻ يستحي أن يعذب شيبة شابت في الإسلام، وعلى ذكر حياء الله من عبده المؤمن أذكر أن شيخًا من أشياخنا كان إذا قرأ الحديث الشريف: «**إنَّ الله ليستحي أن يعذب شيبته في الإسلام**» كان يبكي، فقيل له: تبكي والحديث يبشرك بكرم الله عليك؟! فقال: أبكي لأن ربي القادر القاهر القوي الجبار يستحي وأنا العبد الضعيف لا أستحي من معصية الله.

ولقد كان الحياء خلقًا لرسول الله ﷺ، فقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها».

وكان الحياء صفة الأنبياء، فقد أخرج الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى عليه السلام كان حييًّا ستيرًا، لا يرى من جلده شيء استحياءً منه، فآذاه بنو إسرائيل، وقالوا: «ما يستتر موسى إلا من عيب بجلده كبرص أو آفة»**».

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قمة في الحياء، فقد ذكر رسول الله ﷺ كما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة –رضي الله عنها– أن رسول الله ﷺ قال عن عثمان بن عفان ﷺ: «**ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة**».

وإنما احتل الحياء هذه المنزلة في سيرة السلف الصالح؛ لأنه الكابح القوي الذي يكبح المرء إذا همَّ بما لا يليق، يقول الشاعر:

ورب قبيحـــة مـــا حـــال بينـــي وبـــين ركوبهـــا إلا الحيـــاءُ

والحقُّ أن الذي لا يستحي يصنع ما يشاء دون مبالاة، ففي الحديث الذي رواه البخاري يقول النبي ﷺ: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى.. إذا لم تستح فاصنع ما شئت**».

والحياء فطرة إلهية للإنسان، فهو إذا تكشَّف ستر نفسه بفطرته، بينما نبذ الحياء أمر وتصرف شيطاني، فقد طارد الشيطان آدم وحواء حتى نزع عنهما لباسهما الذي يواري سوءاتهما، ولكن بالفطرة طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة استحياءً من التعري، ولهذا كانت كل دعوة إلى العري إنما هي دعوة منحرفة كافرة بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

ولقد كان الحياء من آداب الجاهلية العربية، فلما جاء الإسلام أكد تلك الصفة وحث عليها، قال عنترة وهو شاعر جاهلي:

إِنّي اِمـرُؤٌ سَـمحُ الخَليقَـةِ ماجِـدٌ لا أُتبِـعُ الـنَّفسَ اللَّجـوجَ هَواهـا
وَأَغَـضُّ طَـرفي مـا بَـدَت لي جـارَتي حَتّـى يُـواري جـارَتي مَأواهـا

ولقد وقف أبو سفيان أيام جاهليته بين يدي قيصر ليسأله عن محمد ﷺ، فاستحى أن يكذب، وقال عن نفسه: لولا حيائي أن يمسكوا عليَّ كذبًا لكذبت على هرقل حين سألني عن محمد، ومما يدلُّ على أن الحضارة الحديثة منافية لفطرة الله ما شاع في بلاد الغرب والشرق من تكشف يندى له جبين الإنسانية، حتى لقد ادعى بعض رجال الفكر الأوروبي أن العري لون من ألوان الحرية، وكان من آثار ذلك الفكر السقيم أن أنشئت أندية للعراة يبرزون فيها كالحيوانات.

والحياء أنواع كلُّها بفضل الله شرف وبركة وأخلاق، فالحياء من الله يعصم العبد عن معاصيه في السر والعلانية، ويوصله إلى أعلى مراتب الدين، وهي مرتبة الإحسان حين يعتقد العبد أن الله يراه أينما كان، فيعبد الله كأنه يراه، أما الحياء من الناس، فهو أيضًا من أشرف الشرف؛ لأن المرء عندئذٍ يربأ بنفسه عن كلِّ ما يسقط مروءتها، وأما حياء المرء من نفسه، فتلك منزلة من منازل الأبرار؛ لأن هذا النوع من الحياء يصدر عن النفس اللوامة التي هي الضمير الحي، وهذه النفس تتعقب صاحبها باللوم على كلِّ صغيرة وكبيرة، مما ينزل بالإنسان عن مستوى الفضلاء.

ولقد أشاد رسول الله ﷺ بالحياء، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء خير كله**»، وفي الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله حيي ستير يحبُّ الحياء والستر**»، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لكلِّ دين خلقًا، وخلق الإسلام الحياء**».

ومعنى هذا أن الطابع المميز للمجتمع الإسلامي أنه مجتمع تشيع فيه صفة الحياء، وهي صفة تحرس المجتمع من كلِّ عمل يخدش الحياء أو ينافي المروءة، وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء** (يعني من الهمجية)، **والجفاء في النار**»، وفي صحيح البخاري: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**».

ومما يعينك على الحياء -أخي المسلم- أن تراقب الله ﷻ فتذكر أنه يراك، وإن لم تكن تراه، وتستحضر عظمته وقدرته وجلاله أينما كنت، وتعلم أن الله ﷻ غيور على حرماته وحدوده.

هذا، ومما يعينك على الحياء من الله أن تذكر دوامًا أنه أسبغ عليك نعمة ظاهرة وباطنة، وسخَّر لك ما في السموات وما في الأرض لتكريمك، وهذا التكريم يقابله العقلاء بالاعتراف والشكر لا بالمجاهرة بالمعاصي.

ولا بدَّ من الإشارة أن الحياء لا يجوز أن يتحول جبنًا وسكوتًا على المنكر، فليس من الحياء أن ترى مجرمًا يجاهر بالجريمة، فتستحي من ردعه، وليس من الحياء أن تكتم الشهادة وكلمة الحق، وليس من الحياء أن تستحي من سؤال العلماء عن أمور العلم النافعة، فقد جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**نعم نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»، ولا غرو فالعلم يهرب من المستحي والمستكبر.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الذين يستحون من الله حق الحياء.

***

من أحاديث الآداب

الرفق بالحيوان

لا يكتفي المؤمن أن يتحلى برحمة الإنسان لأخيه الإنسان، بل إن رحمته تتجاوز ذلك إلى الحيوان، فالرفق بالحيوان من وصايا رسول الله ﷺ، ولا غرو فرسول الله ﷺ وصفه ربه بأنه أرسل رحمة للعالمين، والعالمون كل مخلوقات الله، والله ﷻ رب العالمين.

إنَّ الإنسان ليثاب حين يرحم الحيوان ويرفق به، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**في كلِّ ذات كبد رطبة أجر**»، «**لعن الله من مثل بالحيوان**»، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ نهى أن يقتل شيء من الدواب صبرًا، والقتل صبرًا هو أن تحبس من تريد قتله حتى يموت من الجوع والعطش.

ولقد كان رسول الله ﷺ يكره بل ويلعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرمى إليه، فقد جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»، وكان -عليه الصلاة والسلام- يكره أن تضرب الدابة على وجهها أو توسم في وجهها، ففي سنن أبي داود أن أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِحِمَارٍ قَدْ وُسِمَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ: «**أَمَا بَلَغَكُمْ أَنِّي قَدْ لَعَنْتُ مَنْ وَسَمَ الْبَهِيمَةَ فِي وَجْهِهَا أَوْ ضَرَبَهَا فِي وَجْهِهَا**»، فَنَهَى عَنْ ذَلِكَ.

وفي أيامنا هذه يفاخر أهل أسبانيا بلعبة تخصصوا فيها واعتبروها من تراثهم وهي مصارعة الثيران والتحريش بينها أو بين ثور وإنسان، حتى يقتل الثور بطريقة وحشية، جاء في سنن أبي داود أن النبي ﷺ نهى عن التحريش بين البهائم.

هذا، وإن الله سائل كل عبد آذى طيرًا أو حيوانًا عن سبب إيذائه مهما كان شأن ذلك الطير ضئيلاً، فقد روى الشافعي أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل عصفورًا بغير حقها سأله الله ﷻ عن قتله**»، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: «**أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها فيرمي بها**».

على أن الضار من الدواب والحيوان يقتل، ويكون في قتله أجر كالكلب العقور والحية، يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو داود -رحمه الله: «**من قتل حية كمن قتل كافرًا**»، وفي الأثر أن

عقربًا لسعت رسول الله ﷺ فقال: «**لعنك الله، فما تبالين مؤمنًا آذيت أم كافرًا**»، ثم دعا بالملح فدلكه فهدأت، وبعض الحيوان النافع في الجهاد يحترم ويكرم، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة**»، وكان يكبر من يربي أفراسًا للجهاد في سبيل الله.

هذا، وكان رسول الله ﷺ يعلِّم أصحابه ما يقيهم شر العقرب، فقد روى أبو حنيفة -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره عقرب حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي لم يضره حتى يصبح**».

وكان -عليه الصلاة والسلام- يتعوذ بالله إذا سمع نهيق حمار أو نباح كلب أو صوت ديك بالليل، ويقول: «**إنهم يرون ما لا ترون**».

وكان -عليه الصلاة والسلام- يوصي بالإحسان والرفق في كلِّ شيء، وخصوصًا في موضع الذكاة والذبح، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله كتب الإحسان على كلِّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**».

هذا، وقد دأبت بعض الدول على تأسيس جمعيات للرفق بالحيوان، لكنها في الوقت نفسه تستهين بدم الإنسان مع أن أعظم المخلوقات شأنًا عند الله هو الإنسان المؤمن، وفي هذا يقول النبي ﷺ: «**لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن**».

إنَّ احترام الكرامة الإنسانية والدم الإنساني البريء من أعظم الأوامر الإنسانية، وحتى لا تشيع تلك الجريمة الشنعاء، قال الله -تعالى- في كتابه الكريم في سورة «المائدة»: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾، وذلك لأن القاتل يسنُّ في الأرض جريمة القتل ويشيعها، فيساهم في إفساد الأرض وإشاعة هذه الجريمة المنكرة.

هذا، ولبيان فضل الرفق بالحيوان، فقد جاء في صحيح البخاري حديثان حول هذا الأمر فيهما حث على هذه الفضيلة؛ لأن بها ينال العبد مغفرة الله وحسن جزائه، وبعكسها ينال غضبه وناره، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلت امرأة النار في هرة**

ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض» أي: حشراتها.

إنَّ مثل هذا الأمر قد يشاهده المرء في ملاعب الأطفال؛ إذ ربما أمسك بعضهم هرة وطفقوا يطاردونها ويعبثون بها دون أن يتفقدوا طعامها وشرابها حتى تموت بين أيديهم، وينالهم بموتها إثم عظيم، وفي صحيح البخاري أيضًا يقول النبي ﷺ «**غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ** (أي: بئر) **يَلْهَثُ، قَالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا** (أي: بغطاء وجهها)، **فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ**».

وقد نهى رسول الله ﷺ أن تحبس الحيوانات على نزر من الطعام، فتضعف أجسادها، وأنكر على أهل بيتٍ رأى عندهم جملاً قد برزت من الضعف عظامه، فقال لهم: «الله الله في هذه البهائم، اقتنوها صحيحة أو كلوها صحيحة».

قبل أن ينشئ الأجانب جمعيات الرفق بالحيوان بألف وأربعمائة عام ونيف كان رسول الله ﷺ يرسي قواعد الرحمة في الأرض، ويوصي بالحيوانات خيرًا، وينهى عن إجاعتها أو إيذائها؛ ليظل الإسلام دين الرحمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولا غرو فربنا من علياء سمواته كتب على نفسه الرحمة، ونبيُّنا -عليه الصلاة والسلام- هو سراج الدنيا ورحمة العالمين.

***

openkandil.com

من أحاديث الآداب

الحبُّ في الله والبغض في الله

من أنواع العبادة نوعان قلما اتضحت صورتهما عند كثير من الناس.. إنهما عبادة الحب وعبادة البغض، فحين يكون حب المرء في الله وبغضه في الله فهو عندئذٍ ممن ذاق حلاوة الإيمان، وأصبح وليًّا من أولياء الرحمن، يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**».

والحبُّ أحيانًا يأخذ بيد صاحبه حتى يضعه في مصاف الصديقين، يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود: «**إنَّ من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله**». قالوا: يا رسول الله، ألا تخبرنا من هم؟ قال: «**هم قومٌ تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم النور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس**»، ثم قرأ الآية: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾».

وما دام الحب عبادة وتضحية؛ فانظر -يا أخي المسلم- من تعبد، واحرص على أن تجعل عبادتك أسمى السمو وأشرف الشرف. لقد أحب مجنون بني عامر ليلى، وبذل لها عقله وحياته، فمات في سبيل امرأة يمكن أن يغني غيرها عنها، وصرف عبادته إلى شهوة مجنونة عارمة صوَّرت له من المرأة شيئًا غير المرأة، حتى ضيَّع دينه، ونسي ربه وسفه نفسه، واختلطت عليه عبادته، فقال في ذلك:

أَراني إِذا صَلَّيتُ يَمَّمتُ نَحوَها ... بِوَجهي وَإِن كانَ المُصَلّى وَرائِيا

أُصَلّي فَما أَدري إِذا ما ذَكَرتُها ... أَثِنتَينِ صَلَّيتُ الضُحى أَم ثَمانِيا

إنما يكون شرف الحبِّ على حسب سمو مقصده ونبل هدفه، وهذا النوع من الحب هو الذي غرسه رسول الله ﷺ في شباب الإسلام.. كان الشباب الجاهلي قبل طلوع نور الإسلام يعشق ثلاثة أمور من أجلها يعيش ومن أجلها يتمنى الحياة، وقد ذكرها الشاعر الجاهلي في معلقته فقال:

وَلَولا ثَلاثٌ هُنَّ مِن عيشَةِ الفَتى وَجَدِّكَ لَم أَحفِل مَتى قامَ عُوَّدي

وذكرها بعد هذا البيت، وإذا هي الخمر والنساء والأسفار، فلما جاء الإسلام بسنائه وسناه لم يطمس ذلك الحب في النفوس، ولكنه وجهه إلى الهدف الأسمى، فعلَّمهم بدلاً من تلك الأنماط الرخيصة حبًّا من طراز آخر.. إنه حب الله ورسوله.

في يوم الفزع الأكبر ينقسم الإخلاء والأحبة قسمين أخلاء متحابون، حتى والناس في أشد الفزع، وإخلاء بعضهم لبعض عدو يسبُّ بعضهم بعضًا ويكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، يقول الله -تعالى- في سورة «الزخرف»: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾.

كان قوم إبراهيم عليه السلام يعقدون بينهم صداقات متجمعين على عبادة صنم يسمرون حوله، فكان إبراهيم عليه السلام يحذِّرهم من محبة ساقطة الهدف قطبها صنم لا يضر ولا ينفع، وفي هذا يقول الله -تعالى- على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿**وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَاصِرِينَ**﴾ [العنكبوت: ٢٥].

إنَّ من الحبِّ ما يورِّث ندامة يوشك المرء منها في القيامة أن يقطع يديه ندمًا، كمثل ذلك القرشي الذي آمن وأقبل على القرآن ينير به قلبه، لكن صديقًا له كان ضالاً، فلم يزل به حتى شغله عن القرآن، فقسا قلبه وعاوده كفره، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «الفرقان»: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۝ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً**﴾.

إنَّ من آداب المؤمن أن يجعل هواه وميله وحبه تبعًا لما جاء به رسول الله ﷺ، فيحب أحباب الله وأهل الدين، ويكره أعداء الله وأعداء الدين حينئذٍ يكون الإيمان التام -إنْ شاء الله، يقول رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**».

وإني لأعجب كيف يتعلق قلب المسلم في هذه الأيام بشرار الخلق من أهل الفساد والتضليل، أعرف أدباء من العرب في هذه الأيام إذا ذكر له أديب أجنبي كافر هشَّ له

واستبشر، وإذا سمع الجيد المعجب من أدبنا وتراثنا وسمع أسماء أدبائنا أهل العقيدة والإبداع اشمأز واستكبر، وقد ذكر الله ﷻ أمثال أولئك الأشرار بقوله في سورة «الزمر»: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾.

وقد شاع في هذه الأيام بين المسلمين مصادقة الكافرين لعلاقة تجارية أو مصلحية، فترى المسلم وزوجته وبناته ربما استقبلن الكافر وزوجته في هالة من الإجلال، ثم يتعلمون من ذلك الأجنبي التكشف والاستهتار بالدين، يقول النبي ﷺ: «**من آثر محبة الله على محبة الناس كفاه الله مئونة الناس**»، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

إنَّ كثيرًا من المسلمين في هذه الأيام يشوهون سمعة أهل الدين، ويتهمونهم بشتى الأراجيف، بل لعلهم يخافون من اجتماع المصلين ويعلنون عليهم العداء، وما دروا أنهم بذلك يعلنون الحرب على الله، يقول النبي ﷺ فيما رواه البخاري: «**من عادى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب**».

وبيَّن رسول الله ﷺ للمؤمنين أن من أراد أن يحترم الله ويحبه الله؛ فعليه من جانبه أن يحبَّ الله –تعالى، ويحترم أوامره يقول النبي ﷺ: «**من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله؛ فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه**».

ولعل أكبر دليل على حبك لربك هو أن تكثر من ذكره، جاء في الأثر: «**من أحب شيئًا أكثر من ذكره**»، وفي مصابيح السنة يقول النبي ﷺ: «**من أشد أمتي لي حبًّا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**»، ثم إن على المؤمن أن يحب الصالحين والأبرار؛ ليكون من زمرتهم، يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**المرء مع من أحب**»، وفي معجم الطبراني: «**كل نفس تحشر على هواها، فمن هوى الكفر فهو مع الكفرة، ولا ينفعه عمله شيئًا**»، وفي سنن الترمذي: قال الله –تعالى: «**المتحابون بجلالي على منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء**».

اللهم اجعل حبنا فيك وكرهنا من أجلك، واجعلنا سلمًا لأوليائك حربًا على أعدائك.

من أحاديث الآداب

آداب السَّـــــلام

في هذه الحلقة سنذكر -إنْ شاء الله- جملة من آداب السلام مستقاة من أقوال وأفعال لرسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام.

- في الحديث المتفق عليه أن أمَّ هانئ بنت أبي طالب -رضي الله عنها- قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره بثوب، فسلَّمت عليه فقال: «**مَنْ هذه؟**» قلت: أم هانئ بنت أبي طالب. فقال: «**مرحبًا بأمِّ هانئ**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «**إنَّ جبريل يقرأ عليكِ السلام**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا أن أبا بكر ﷺ قال لعمر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ: «انطلق بنا إلى أمِّ أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها».

- وفي الصحيحين ما يفيد أن رسول الله ﷺ لم ينكر على أصحابه حين سلَّموا عليه وهو يصلي، وفي سنن الترمذي وأبي داود ومسند أحمد أن النبي ﷺ ردَّ بالإشارة على صهيب وابن عمر -رضي الله عنهما- حين سلَّما عليه وهو يصلي.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سلَّم عليه رجلٌ وهو يبول، فلم يرد عليه.

- وفي الحديث المتفق عليه أن أبا هريرة ﷺ مرَّ على صبيان، فسلَّم عليهم وقال: «كان رسول الله ﷺ يفعله».

- وفي مسند أحمد وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إني لا أخيس بالعهد ولا أحبس البرد**».

أولاً: السُّلام سُنة مباركة كريمة من سنن الإسلام شرَّعها ربنا ﷻ لتتحاب بها أمة محمد ﷺ، والسلام هو تحية أمة محمد في الدنيا، وتحيتهم في الجنة، وتحية الله إليهم يوم يلقونه ويشملهم بتجليه، ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٤٤].

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى معناه أن الله ﷻ يعد بالأمن والسَّلام كل صالح خير

من عباده.. إنه ﷻ السَّلام المؤمن الذي يشمل عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالسلام، ويؤمنهم في الدنيا والآخرة، وإفشاء السلام سُنة كفاية مؤكدة، وردُّه في أصح الأقوال فرض كفاية.

ثانيًا: لا يسلِّم أجنبي على أجنبية، ويجوز أن يسلِّم على عجوز، وعلى قريباته اللاتي عرفن بالصلاح، كما رحَّب رسول الله ﷺ بابنة عمه أم هانئ.

ثالثًا: الحقُّ أن السلام على المرأة الأجنبية يتوقف على النية، ومن ثَمَّ ذهب أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- يزورا أم أيمن اقتداءً برسول الله ﷺ، وقال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها: «**إنَّ جبريل يقرأ عليكِ السلام**»، ويجوز لرجل أن يزور صديقة صالحة لوالدته ويسلِّم عليها، كما يجوز أن يزور امرأة صالحة تديم الذكر والعبادة، ويطلب منها الدعاء، ففي بقية حديث الزيارة التي قام بها أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما- لأم أيمن أنهما عزياها في رسول الله ﷺ، فقالت ما معناه: «أنا ما حزنت لانتقال رسول الله ﷺ إلى لقاء ربه الكريم، ولكنني حزنت لانقطاع الوحي عن هذه الأرض»، ثم بكت وبكيا معها.

رابعًا: لا يلقى السلام على من يستحم أو يتخلى أو يبول، ولا يلقى على مشغول كمن يأكل أو يشرب أو يعد نقودًا، ويجوز أن تسلِّم على المصلي، ولكن لا تنتظر منه ردًّا إلا بعد أن يسلِّم، ويجوز للمصلي أن يرد التحية بالإشارة، وإذا سلَّمت على مؤذن جاز أن يرد عليك بالإشارة أو بالسلام أثناء فتراته.

خامسًا: من السُّنة السَّلام على الصبيان، ففي ذلك تعليم لهم كما أن فيه إشعارًا لهم بالاحترام ورفعًا لمعنوياتهم.

هذا، وتحية السلام ترد بأحسن منها، فإذا قال لك المسلم: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ولكن إذا قال لك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فإذ ذاك لا زيادة عليها.. إنَّ من يقول لك: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه يكون قد تكلف، والتكلف مذموم.

سادسًا: إذا سلَّم من الجماعة واحد سدَّ عن الجماعة؛ لأن السَّلام سُنة كفاية، أما عند الرد

فمن الأفضل أن يرد الجماعة كلهم.

سابعًا: إذا سلَّمت على واحد فخاطبه بضمير الجمع، وقل له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فذلك أفضل من أن تقول له: السلام عليك، أما في رد السلام؛ فيجوز أن تقول للمسلم: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، وفي كلتا الحالتين استعمل في الرد واو العطف فقل: وعليكم السلام، ولا تقل: عليكم السلام.

ثامنًا: الرسالة التي تأتيك من صديق تعتبر تحيةً، فرد عليها بأحسن منها، وهذا ما أشار إليه رسول الله ﷺ في قوله الكريم: «**لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرد**»، والرسالة دليل على المرسل، فلتكن مناسبة لحال المرسل والمرسل إليه، وإذا كتبت إلى مسئول أو رئيس؛ فاجعلها مختصرة وافية، وتوخ البلاغة المؤثرة، أما إذا كانت إخوانية خفيفة؛ فلا بأس بالإطالة وإخبار المرسل إليه عن أمور شخصية واجتماعية مما يحلو له معرفته والاستماع إليه.

تاسعًا: في حديث أم هانئ حين دخلت والرسول ﷺ يستحم تستره فاطمة -رضي الله عنها- أمورٌ حسنة مستفادة، منها: حسن استقبال القريبات وبنات الأعمام بحضور المحارم، فإذا كنت مع زوجتك مثلاً وزارتكم إحدى بنات أعمامكم فرحِّب بها، وكلمة «مرحبًا» كلمة حلوة ومعناها: «لقد حللت بقدومك إلينا مكانًا رحبًا وسعة في المكان والقلوب».

وفي الحديث ما يجيز أن تعرف نفسك بكنيتك فتقول: أنا أبو محمد أو أبو حسن، وتقول المرأة: أم هانئ أو أم إبراهيم، كما يفيد الحديث جواز الكلام أثناء الوضوء أو الغسل، وأن يلقى السلام ويرد أثناءهما.

وبعد؛ فما يجوز أن ينسى الهدف الأعظم من السلام وهو قوله ﷺ: «**ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**».. إنَّ الحكمة العظمى من السلام هي نشر المحبة في المجتمع الإسلامي، فإذا تحاب أفراد المجتمع في الله فقد تحقَّق إيمانهم بإذن الله، وإذا تحقَّق إيمانهم ضمنت لهم الجنة، وهذا ما أشار إليه رسولنا ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا**»، وقد جزم الفعل «تؤمنوا» لشبه الجملة بالشرطية، والله أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

من أحاديث الآداب

إفشـــــــاء السلام

أقبلتُ ذات يوم على سُربة من صغار الأطفال يلعبون كرة القدم، فلما دنوت بحيث أسمعهم وأرى حركاتهم إذا كل واحد منهم كأنه مُهرٌ عربيد لم يروض، كان لهم مع كل ضربة كرة صيحاتٌ صارخةٌ بين مستنكرة ومبتهجة ومحذرة، لكنها على شتى موضوعاتها لا تخلو من فلتات توشك أن تكون بذاءً، حتى إذا صرت منهم قاب قوسين سألت الله العافية، وألقيتُ عليهم السُّلام فردَّوا التحية بأحسن منها، والغريب أنهم أوقفوا اللعب، وكأن إلقاء السَّلام عليهم قد نفد إلى قلوبهم، فانتهزت الفرصة وسألتهم عن أحوالهم، ودعوت لهم بالنجاح، وقلت لهم: إنَّ لعبة كرة القدم تقوي عضلات الأرجل، وقد كنت ألعبها فالعبوها لتقويكم، فقط احذروا فيها ثلاثة أمور: ألا يخالطها سباب أو شتائم؛ لأن الله يكره ذلك، وألا تلهيكم عن الدروس والواجبات، وأن تقطعوا اللعب إذا سمعتم أذان المغرب، وتغسلوا من ماء هذا المسجد القريب لتصلوا مع الجماعة.

ولقد كان من بركات إلقاء السلام أن رأيت كثيرًا منهم في صلاة المغرب، وكنت قد قرأت في كتب السُّنة أن رسول الله ﷺ كان يهتم كثيرًا بإلقاء السَّلام على الأطفال، بل لقد كان يعرج عليهم ليلقي السلام عليهم عن قصد، وقد يسأل أحدهم عن لعبه أو عن عصفوره، وربما اشترك في محاولات الرماية معهم وعلَّمهم كيف تمسك القوس ويسدد السهم، وقرأنا أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يلقي السلام على صغار الصبية، فلما سئل في ذلك قال: لقد كان يفعله رسول الله ﷺ.

ولأن إفشاء السلام من شعب الإيمان، ولأنه مفتاح الوداد بين القلوب المتجافية، ومزيل الضغائن والكراهية العاتية رأيت أن أبسط القول في هذا الأدب العظيم، وأحدِّث من السُّنة عن مدى ما كان يحرص عليه النبي الكريم ﷺ.

- جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «**تطعم الطعام،**

وتقرأ السَّلام على من عرفت ومن لم تعرف».

- وفي صحيح مسلم والسُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم: أفشوا السَّلام بينكم**».

- وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام.. تدخلوا الجنة بسلام**».

- وللطبراني بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام**».

- وفي الصحيحين وسنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**حق المسلم على المسلم خمس: ردُّ السّلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»، وزاد مسلم سادسة: «**وإذا استنصحك فانصح له**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي: قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام؟ فقال: «**أولاهما بالله**».

- وللبزار وابن حبان وصححه: «**يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والماشيان أيهما بدأ فهو أفضل**».

- وجاء في السُّنن: «**مَن قال: السلام عليكم كتبت له عشر حسنات، ومَن قال: السلام عليكم ورحمة الله، كتب له عشرون حسنة، ومن قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب له ثلاثون حسنة**».

- وروى أصحاب السُّنن أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا انتهى أحدكم إلى المجلس؛ فليسلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة**».

أولاً: إنَّ أجمل تحية يتبادلها البشر هي التحية المباركة الطيبة التي شرَّعها ربنا ﷻ (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وذلك لأن السَّلام اسم من أسماء الله الحسنى، حلو المدلول، يبشر بأن الله ﷻ أعطى خلقه أمانًا من أن يُظلموا، وحبذا لو يجعل العالم كله تحيته (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ لأن السلام العالمي هو الأمنية الغالية التي تداعب أحلام الإنسانية، فقد

كانت أمنية القرون الأولى ومطمع الأجيال الحاضرة، وتحية السلام في الإسلام لا تكتفي بأنها عهدٌ وأمان للمسلم عليه، لكنها إلى جانب ذلك دعاء بأن يشمل الله المسلم عليه بالرحمة والبركة، وبهذا فهي أنشودة حب إنساني نبيل.

ثانيًا: إذا حييت أخاك عند مقابلته فحيه أيضًا عند وداعه؛ ليظل الجو عطرًا بأنفاس المحبة والأمن، وإذا افترقتما ولو دقيقة ثم تقابلتما فأعيدا تلك التحية الإلهية الحبيبة؛ ليظل حبكما في الله موصولاً.

ثالثًا: تحية السلام تقترن دوامًا بالأدب والتواضع، فيسلِّم الصغير على الكبير، فهذا هو الأدب، ويسلِّم الراكب على الماشي، وهذا هو التواضع، ويسلِّم القليل على الكثير احترامًا للكثير، كما يسلِّم الماشي على القاعد، ومن آداب السلام ألا تلقيه على مشغول أو على اثنين يتساران بحديث خاص، فإذا مررت مثلاً على مسلمين يتهامسان بحديث، وتبدو عليهما الجدية؛ فلا تدس رأسك بينهما لتقول لهما: السَّلام عليكم.

رابعًا: من الأفضل إذا حييت أخاك أن تقول: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)؛ ليكتب لك ثلاثون حسنة، وتقول له: (السلام عليكم) بلفظ الجمع إظهارًا لاحترامه، ثم حاول أن تكون أنت البادئ بالسلام؛ لأن البادئ أفضل وأولى بالله ﷻ.

خامسًا: إذا مررت على مجموعة نساء من قبيلتك جالسات على باب إحداهن في أدب واحتشام، فقل لهن في أدب ووقار: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وليكن قصدك الاحترام ليشعرن بالكرامة.

سادسًا: اقترن السلام في الأحاديث بإطعام الطعام؛ لأن السلام كثيرًا ما يكون بداية تعارف، ثم يتلوه تزاور وعيش وملح، ثم إن خصلة الكرم مدخل واسع إلى قلوب الناس؛ إذ الكريم دائمًا محبب، والبخيل دوامًا كريه.

نسأل الله أن يرزقنا حبَّه وحبَّ رسوله وحبَّ الصالحين.

***

من أحاديث الآداب

آداب المجالسة

المجالسة عند المؤمن فن رفيع له أصوله وآدابه وله ذوقه ومعالمه، والإسلام يفضِّل أهل المجالسة على أهل العزلة؛ لأن الأولى سنة الأنبياء والمصلحين، أما الثانية وأعني العزلة؛ فهي سنة الهاربين اليائسين، على أن المؤمن حين يكون اجتماعيًّا محبًّا للمجالسة والمعاشرة ومجالس الرجال يلتزم آدابًا معينة تجنبه -بإذن الله- سلبيات الخوض واللعب ومضيعة العمر.

وإني موجزٌ هنا - إنْ شاء الله- آداب المجالسة والمخالطة، لعل الله يعطينا وإياكم خيرها ويجنبنا جميعًا شرها:

أولاً: من آداب المجالسة أن تتحلى أثناءها بالسكينة والأدب والوقار، وتلتزم طول الجلسة البشاشة والاستبشار، فمن حكم عليٍّ ﷺ قوله: «من الدهاء حُسن اللقاء»، ومعنى هذا القول أن أبرز صفات السياسي اللبق حسن استقباله لزائريه وخلطائه، والإقبال عليهم بالخبر الطريف والحديث اللطيف.

ثانيًا: ومن آداب المخالطة والمجالسة ألا تخالط إلا أهل الأخلاق والفضائل والدين، وألا تتعوَّد استقبال السفهاء في بيتك، وألا تعتاد مجالسهم في بيوتهم؛ لأن ذلك ينقل إليك عدواهم وفسادهم، جاء في سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»، وبهاتين الفضيلتين يصبح بيتك مباركًا وطعامك زكيًا طهورًا، يحسبه الله لك كرمًا وثوابًا، وينفع بطعامك أحياءك والموتى، ويحشرك في القيامة مع الأبرار، قال رسول الله ﷺ: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**» رواه الترمذي وأحمد، وفي قول رسول الله ﷺ: «**ولا يأكل طعامك إلا تقي**» تخريج طريف وهو أنه يجوز أن تطعم طعامك الفاسق والكافر إذا كانا محتاجين، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يحسنون إلى أسراهم وهم كفرة، قال تعالى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ [الإنسان:٨].

وقال الأشياخ: لا بأس أن يأكل طعامك أهل الخطايا، لكن إياك أن تطعم طعامك أهل

العقيدة المنحرفة من المحدثين، فإذا جاءك بعض العصاة ممن أدمنوا بعض الذنوب كشرب الخمر أو لعب القمار وأطعمتهم على نية أن يرزقهم الله الاستقامة، فذلك أمر معقول، أما إذا جاءك بعض دعاة الإلحاد أو دعاة المذاهب المنحلة والمنحرفة مما اعتنقوها ودعوا إليها واطمأنوا بها؛ فأولئك غير جديرين بالاحترام أو الإحسان أبدًا.

وعلى الجملة؛ فالمؤمن يجوِّد اختيار جلسائه، وما أجمل قول عدي بن زيد العبادي:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

وصاحب ذوي الأخلاق تغنم بردهم ... ولا تصحب الأردي فتردى مع الردى

وقد يقول قائل: أنا أصحب الفسقة وأجالسهم لأصلحهم، وهذا كلام طيب، ولكن على المؤمن أن ينظر في آثار مخالطته مبكرًا، فإن لمس أثرها وإلا انسحب من مستنقع الوباء الآسن، يقول الشاعر:

وما ينفع الجرباء قرب صحيحة ... إليها ولكن الصحيحة تجربُ

ثالثًا: ومن آداب المجالسة أن تعرف قدر نفسك في المجلس، فلا تجلس في مكان غيرك أولى به منك، أو في مكان ممكن أن تؤمر بتركه عند مقدم غيرك، قال أحد الحكماء: «رجلان ظالمان: رجل وسع له في مجلس ضيق فتربع وانتفخ، ورجل أهديت له نصيحة فاعتبرها ذنبًا»، وإذا وجدت في المجلس علماء فضلاء فاجلس مجلس المستمع، ولا تكثر عرض آرائك، فإن ذلك يسمَّى منك سماجة وحذلقة، ثم هو يبقيك على سابق معلوماتك، ولا يضيف إليها جديدًا، ثم هو يفوِّت عليك ثواب توقير العلماء، يقول ربنا ﷻ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا**﴾ (أي: تفرَّقوا من المجلس، واتركوا مجالسكم)، ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ [المجادلة: ١١]، وسبب نزول الآية -والله أعلم- أن رسول الله ﷺ كان يكتظ مجلسه، فيقبل أحد الصحابة الأجلاء أو أحد الحفظة العلماء، فيقف أو يجلس بعيدًا عن رسول الله ﷺ.

هذا، ومن توقير العالم أن تصغي إليه باهتمام، وألا تنازعه الكلام، وألا ترفع صوتك فوق صوته، والمؤمن في المجالس لا يكثر الضحك أو السخرية، ولا يضحك من نكتة جرت على لسانه ولا يقهقه، فقد ذكرت عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ كان ضحكه

تبسمًا، وأنها ما رأته مستجمعًا يضحك حتى تبدو لهاته (أي: زوره).

ثم إن من آداب المجالس أن تلتمس ذوي المعادن الطيبة من الكرماء وأهل المروءات والتسامح؛ لأن هؤلاء تدوم مودتهم، ولا يهجرونك لغلطة أو عثرة، أما ذوو الكزازة والعصبية والتنطع والجدل والشح، فإن مودتهم لا تدوم؛ لأن النفوس تنجذب إلى المعروف والسماح، وتنفر من اللوم والغلظة، وفي الحديث الذي رواه مسلم: «**النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلاَمِ إِذَا فَقُهُوا، وَالأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**».

والمؤمن لا يجالس الفسل الساقط الطموحات ولو كان غنيًّا؛ لأن مجالسة مثل هذا تورث الكسل وسقوط الهمة، وتبعد الإنسان المؤمن عن مدارج السالكين وطموحات الشرفاء، فقد ذكر ابن عبد البر من كلام عليٍّ ﷺ: «اصحب مَن ينسى معروفه ويذكر معروفك، وينسى حقوقه عليك ولا يذكر إلا حقوقك، ومَن يحلم عليكم إذا أغضبته، ويعتذر إليك إذا أغضبك».

أما عند مجالسة السلطان؛ فالمؤمن لا ينطق إلا بخير أو شفاعة حسنة، ثم هو يتقرَّب إلى الله بإجلال السلطان، ويترك بينه وبين السلطان فراغًا كافيًا لجلوس أصفيائه والمسئولين، ثم هو يقول خيرًا أو يصمت.

من أحاديث الآداب

السماحة والإيثار

الحمد لله الذي شرَّفنا بأكرم الأديان، وأشهد أن لا إله إلا الله، بعث فينا خاتم الأنبياء وسيد بني الإنسان، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث رحمة من الله الواحد الديان، اللهم صلِّ عليه ونولنا وجميع أمته واسع الغفران.

وبعد؛ كما قسَّم الله للناس أرزاقهم وفضَّل بعضهم على بضع في الرزق، كذلك قسَّم بينهم أخلاقهم، ورفع بعضهم فيها فوق بعض درجات، وفي بيان هذه الحكمة البالغة يقول ربنا ﷻ في سورة «الزخرف»: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا**

﴿بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فلقد تدبرت أخلاق الناس، فلم أر فيها أخس ولا أردأ ولا أقبح من شحٍّ مطاعٍ وبخلٍ لئيمٍ، كما لم أر في الأخلاق أسمى شرفًا ولا أحلى طلعةً من كرم سخي يتدفق بالمعروف والسماحة والإيثار. إنَّ أجمل وجه تنظر إليه وجه محسن مؤثر على نفسه، وإن أبشع وجه تطالعه وجه بخيل يكره المعروف، ويزدري صنائع الخير.

أرأيت أجمل صورة من وجه إنسان لا يملك إلا قوت يومه وكفاف أطفاله، يقصده جائع فيؤثره بكلِّ ما يملك، ويطوي بطنه وبطون عائلته على الجوع يومهم ذاك.

ثم أرأيت أقبح صورة من وجه غني فاحش الغنى يملك مخازن أطعمة، يمر عليه محتاج جائع فينهره ويقهره، ويزعم له أنه لا يملك شيئًا.

سبحان مقسم الأخلاق وصنائع الطبائع، كيف يخلق من بني الإنسان ملائكة فوق الملائكة وشياطين دون الشياطين!!

إنَّ أجمل أحاديث الإنسانية ما يدور حول مواقف الإيثار ذلك الخلق الذي مدحه ربنا ﷻ، فقال في وصف الأنصار: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال في وصف عليٍّ ﷺ والله أعلم: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩، ١٠].

وهذه بعض أحاديث في هذا الباب روتها كتب السير والتاريخ مما لم أجد مثله في تاريخ غير المسلمين:

- جاء في الصحيحين والسُّنن أن أبا طلحة ﷺ كان أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء)، وكانت مستقبلة المسجد ويدخلها رسول الله ﷺ، ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة ﷺ: «يا رسول الله، إن الله تعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحب مالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها حيث أراك الله»، فقال

ﷺ: «**بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ**»، فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه.

- وقرأنا في كتب السير أن شهداء من الصحابة في (اليرموك) منهم عكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وصل لهم شربة ماء وهم في الاحتضار، فطفق كل منهم ينظر إلى الآخر، وكأنه يدعوه أن يشرب قبله، وما هي إلا هنيهات حتى فارقوا الحياة، ولم يشربوا.

- وأهدي إلى رجل من الصحابة رأس شاةٍ مصلى (أي: مشوي)، فقال: إن أخي فلان أحوج إليه منا، وأرسل به إليه، وفعل الثاني فعل الأول، فأرسله إلى أخ ثالث، حتى تداولته عدة أيدٍ، وإذا بالرأس يعود إلى المحسن الأول -رضوان الله عن الجميع.

- وفي صحيح مسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود (أي: شديد التعب) في حاجة إلى طعام، فأرسل إلى نسائه يسأل: هل عندهن طعام؟ فقلن جميعًا: لا والذي بعثك بالحق، ما عندنا إلا ماء، فتطوَّع رجل من الأنصار، فأخذ الرجل وانطلق به إلى مسكنه، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعلليهم بشيء، فإذا أرادوا العشاء فنوميهم، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف، وباتوا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال له: «**لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما**».

- وفي كتب الفتوحات حدَّث حذيفة العدوي قال: انطلقت يوم اليرموك أفتش عن ابن عم لي بين القتلى، ومعي ماء قليل لعل إنْ وجدت به رمقًا سقيته، فلما وصلت الميدان وجدته ملقي بين الجرحى يلفظ أنفاسه الأخيرة، وفيه رمقٌ من الحياة، فأدنيت الماء من فمه، وإذا جريحٌ آخر يتأوه، فأطبق ابن عمي فمه، وأشار أن اسقْ أخي، وذهبت إلى الجريح، وإذا هو هشام بن العاص أخو عمرو بن العاص -رضي الله عنهما، فأدنيت الماء من فمه، وإذا بجريح ثالث يتأوه فأطبق هشام فمه، وأشار أن اسقْ أخي، وأذهب إلى الثالث، فلما وصلت إليه مات وعدت إلى هشام فوجدته قد مات، ورجعت إلى ابن عمي فوجدته قد مات، وعدت بالشربة، رضي الله عنهم جميعًا.

هذه القصة وأمثالها من قصص الإيثار تجيب عن سؤال يتساءله مؤرخو التاريخ الإسلامي ألا وهو: كيف تسنى للعرب المسلمين في زمن يسير جدًّا أن تمتد فتوحاتهم من مغرب الدنيا إلى مشرقها؟! وكيف أطاحت جيوشهم القليلة بأعظم إمبراطوريتين على وجه الأرض على ضعف أسلحتهم وضآلة إمكاناتهم؟!

والجواب: إنَّ تلك القلوب الكريمة المؤمنة جعلت من الجيش الإسلامي كتلة متحدة عظيمة تهجم متسابقة إلى الشهادة لتكون كلمة الله هي العليا، فاستحقت بذلك من ربها ﷻ أن ينجز لها وعده الذي وعد المؤمنين؛ حيث يقول في محكم كتابه: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧]، والغريب أن العرب المسلمين كانوا قبل تلك الفتوح بأعوام ذوي قلوب قاسية وأكباد غليظة، كلُّ همهم كسب المال حرامًا أو حلالاً، فكان الغزو والنهب والسلب والغارة، وكانت حياة من الأحقاد والثارات مزقتهم حتى كاد بعضهم يقضي على بعض، ثم كانت معجزة الإسلام الذي ربَّاهم في زمن خاطف على منهجهم الكريم، وإذا تلك الأوزاع المشتتة التي كانت على شفا حفرة من النار تأخذ بحبل الله معتصمة به متآخية في ظلاله مستمسكة بعروته الوثقى، وإذا الأحقاد والثارات تنقلب حبًّا وإخاءً وإيثارًا، وإذا الأعداء إخوان.. أليس في هذا عدة لقومنا الذين يتناحرون وخلف المذاهب المنحرفة يسيرون -أن يعرفوا دواء أدوائهم وعلاج ضياعهم، وأن يستعملوا الدواء الذي استعمله سلفهم الصالح، فشفاهم من جميع الأدواء، ونقلهم من قبائل متصارعة إلى خير أمة أخرجت للناس آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، مؤمنة بالله، يقول الله -تعالى- مخاطبًا أمة محمد ﷺ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُن مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٧].

***

من أحاديث الأحكام

الذوق الاجتماعي وأدب الملازمة

في هذه الحلقة سنكمل -إنْ شاء الله- ما بدأناه من مواقف رسول الله ﷺ وكلماته الخالدة التي تدور حول الذوق الاجتماعي، وأدب الملازمة وسمو التعامل الإنساني النبيل.

- في أثناء حفر الخندق كان رسول الله ﷺ أشد الصحابة اجتهادًا في الشغل، فكان يرى تارة يضرب بالمسحاة، وتارة يحفر بالكرزين وهي (الفأس الحديدة الرأس)، وأحيانًا يغرف التراب في المكتل، وأحيانًا يحمل الزنبيل على جنبه أو كتفه، وفي يوم بلغ منه التعب مبلغًا شديدًا، فغلبه النعاس فنام متكئًا على حجر بشقه الأيسر، فتأثر بمنظره المنهمك أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما، وقاما عند رأسه خشية أن يزعجه من يَمرُّ قريبًا منه، وفجأة رأوه يثب -عليه الصلاة والسلام- وينتبه فزعًا ويتناول المكرزين أو المسحاة ويضرب حالاً، وهو يقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

ويقول لصاحبيه: «**ألا أفزعتموني؟**» أي: نبهتموني لكي اشتغل.

- ووقع في أسر المسلمين أسير من قريش اسمه «المغيرة بن معاوية» من أقارب عمرو بن العاص، فشدَّ المسلمون وثاقه، وقال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها: «**احتفظي بهذا الأسير**»، لكن عائشة -رضي الله عنها- شغلت عن الأسير حين جلست تتحدث مع إحدى زائراتها، ويبدو أن الأسير تخلص من وثاقه فهرب، ولما رجع رسول الله ﷺ قال لعائشة -رضي الله عنها: «**أين الأسير؟**» فقالت: شغلت عنه فهرب قبل قليل، فقال لها رسول الله ﷺ: «**قطع الله يدك**»، وخرج -عليه الصلاة والسلام- فاستنفر الصحابة، فلحقوا بالأسير وأعادوه، ولما رجع إلى البيت وجد عائشة تقلب يديها وتبكي، وكانت تخاف من دعاء رسول الله ﷺ، ولا تشك أن يستجاب ويقع لا محالة، فقالت لرسول الله ﷺ: دعوت عليَّ أن يقطع الله يدي، وإني جالسة انتظر كيف تقطع. فاستقبل رسول الله ﷺ القبلة، ورفع يديه ودعا ربه قائلاً: «**اللهم إنما أنا بشر أغضب وآسف كما يغضب البشر، فأيُّما مؤمن دعوت عليه بدعوة، فاجعلها له رحمة**»، فطاب خاطر عائشة واطمأنت بعد أن كانت مروعة.

- ومن المعروف أن عقبة بن أبي معيط كان أفظع قريش إيذاءً لرسول الله ﷺ، وقد أصر على الكفر حتى قُتل مشركًا ببدر، وظلَّ أولاده يكرهون الإسلام، ويكرهون رسول الله ﷺ، ولكن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أسلمت في أعقاب الحديبية، وكانت متخوفة إذا هاجرت أن يردها رسول الله ﷺ، إلا أنها جرأت أخيرًا وهاجرت، وكانت تخشى أن يتذكر رسول الله ﷺ ما لقيه من أذى أبيها، فيعبس في وجهها، فتوجهت إلى بيت رسول الله ﷺ، ودخلت على أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة فارة بإسلامها. فلما جاء رسول الله ﷺ أعلمته أم سلمة، فأقبل على أم كلثوم يرحب بها ويؤهل ويسهِّل، فقالت له: يا رسول الله، أخشى أن تردني إلى الكفار، كما شرطوا عليك في الحديبية أن ترد من يأتيك مسلمًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «**نحن نرد الرجال، أما النساء فنمتحنهن، فإذا علمناهن مؤمنات لم نرجعهن إلى الكفار**»، وتلا عليها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ [الممتحنة: ١٠]، ولم يردها إلى الكفار، وكانت عاتقًا (أي: بكرًا)، فتزوجها زيد بن حارثة ﷺ.

- بعد أن صالح الرسول ﷺ أهل خيبر على شروط معينة جعل بعض الشباب المحاربين يقعون في حرث اليهود، ويأكلون من خضرهم وزروعهم، فاشتكى اليهود إلى رسول الله ﷺ، فأمر عبد الرحمن بن عوف ﷺ أن ينادي الصلاة جامعة، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**إنَّ يهود قد اشتكوا إليَّ أنكم وقعتم في حظائرهم، وقد أمناهم على دمائهم وعلى أموالهم التي في أيديهم وفي أراضيهم، ألا إنه لا تحل أموال المعاهدين إلا بحقها**»، وأمر المسلمين ألا يأخذوا شيئًا من بقول اليهود إلا بثمن.

- ولما فتح رسول الله ﷺ مكة جاءته نساءٌ من قريش اشتهرن وأزواجهن بعداء الإسلام والمسلمين والحقد عليه، منهن هند بنت عتبة التي مثلت بـ«حمزة»، وأكلت كبده، وامرأة عكرمة بن أبي جهل، وامرأة صفوان بن أمية بن خلف، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وكانت هند منتقبة خجلة من فعلتها بـ«حمزة» عرفها رسول الله ﷺ، وقال لها: «**أنت هند؟**» قالت: أنا هند، فاعف عما سلف، فاستغفر لها رسول الله ﷺ ولعشر معها أسلمن، وأقبلت

زوجة عكرمة بن أبي جهل تستشفع لزوجها عكرمة، وكان ﷺ قد أهدر دمه، فقبل وساطتها، فخرجت وجاءت به من مخبئه، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مسلمًا؛ فلا تسبوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ إليه، والبذاء لا يأتي بخير**»، ووصل عكرمة فقال: يا محمد، هذه أخبرتني أنك أمنتني، فقال: «**صدقت**»، فوثب فرحًا فأسلم، وقبل -عليه الصلاة والسلام- إسلامه ودعا له.

وبعد أيام من ذلك أرسلت هند بنت عتبة جارية لها بهدية إلى رسول الله ﷺ، جديين مشويين وسقاء من لبن، فدخلت عليه الجارية وعنده بعض زوجاته، وقالت له: إنَّ مولاتي تعتذر إليك بأن غنمها في هذه الأيام قليلة الوالدة، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**بارك الله لها في غنمها وأكثر والدتها**»، فلما نمت غنم هند كانت تقول: هذه من دعوة رسول الله ﷺ.

- ولما سار رسول الله ﷺ من العَرج متوجهًا إلى مكة إبان الفتح نظر إلى كلبة قد ولدت حديثًا، وهي تهر على كلِّ من يمر عليها، ثم تعود فترضع صغارها تريد أن تحميهم وتريد أن ترضعهم، ولكي لا تقطع رضاع أولادها أمر أحد الصحابة واسمه «عمرو بن سراقة» أن يحرس حولها، ويمنع أي أحد من الجيش أن يقترب منها أو من أولادها.

ومن قبل ذلك أحضر أحد الجنود المسلمين صغار طائر، فأقبلت الأم ترفرف وتغامر بنفسها، فأمر رسول الله ﷺ أن ترد الصغار إلى عشها، فرجعت الأم مطمئنة، فقال رسول الله ﷺ لمن حضر من أصحابه: «**رأيتكم عجبتم من رحمة الأم بصغارها والذي نفسي بيده الله أرحم بعبده المؤمن من هذه الأم بصغارها**».. حقًّا لقد كان رسول الله ﷺ كما وصفه ربه بقوله: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

***

من أحاديث الآداب

(٢) الذوق الاجتماعي

هذه بعض آداب وجدتها منثورة في كتب السُّنة النبوية كما تتناثر الأزاهير المونقة في مروج الربيع الطلق، أو كما تتناثر الدر من نظم العقود، وقد تأملتها فوجدتها حضارية حقًّا تستسيغها الأذواق السليمة، وتندرج في الأخلاق الكريمة، ووددت لو يطلع عليها أعداء الإسلام ليروا مدى الظلم الذي يقترفونه في حق الإسلام، والكذب الذي يفترونه على أهله، وهذه الآداب في مجموعها هدفها الكبير هو التقاء القلوب على الولاء وانتظام المجتمع في سلك المحبة والوفاء، ثم هي دروس في الذوق الرفيع الذي لا يصدر إلا عما تصدر عنه طاقات الورد من المنظر الجميل والشذا العطر.

- في مسند أبي يعلى أن رسول الله ﷺ قال: «**تهادوا تحابُّوا**»، والحديث حكمة مجربة النفع، فالهدية تذكار حُبٍّ، ومن أجل ذلك كان ﷺ يقبل الهدية ويطعم منها صاحبها ويكافئ عليها.

- وفي سنن أبي داود والترمذي يقول النبي ﷺ: «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بجهنم**»، ومعنى الحديث الشريف تحريم أن يقول المسلم للمسلم: عليك لعنة الله أو غضب الله أو أن يقول له: ألقاك الله في جهنم، وهي إن كانت مكروهة من كلِّ مسلم، ولكنها أشد كراهية حين تصدر من والد على ولده.

- وفي مسند الفردوس للديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**من الجفاء** (أي: من الهمجية والغلظة) **أن يدخل الرجل منزل الرجل، فيقدم إليه شيئًا؛ فلا يأكله، والرجل يصحب الرجل في الطريق؛ فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه، والرجل يجامع زوجته ولا يداعبها قبل الجماع**».

- ويكره الإسلام قلة الحياء وكشف العورة، ويحب الاحتشام وبخاصة من المسلمات، يقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الربيع في مسنده: «**ملعون مَن نظر إلى عورة أخيه، وملعون من أبدى عورته للناس**»، وفي هذا الأدب أيضًا يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي والنسائي: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخل الحمام بغير إزار، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فلا يدخل حليلته الحمام**»، (وهو يعني الحمام الذي بالأجرة تدخله أخلاط من

النساء، وربما يصفن لأزواجهن المرأة المسلمة العفيفة).

وللحديث إضافة تتضمن أدبًا آخر، وهو عدم مجالسة الأشرار: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة تدار عليها الخمر**».

- وفي رواية للطحاوي: «**عورة المؤمن على المؤمن حرام**».

- ومن ذوق المؤمن وأدبه إذا كشفت عورة لأخيه المسلم أن يسترها، فقد جاء في سنن أبي داود: «**مَن رأى عورة فسترها كان كمن أحيا موءودة من قبرها**»، وفي موضع آخر من كتاب الترمذي: «**لا تتبعوا عورات المسلمين؛ فإنه من يتتبع عورة أخيه يتبع الله عورته، فيفضحه ولو في جوف رحلة**».

- من كمال الذوق ألا يرخص المرء عورته، وبخاصة النساء؛ لأن أشراف الرجال وشريفات النساء يصونون عوراتهم أن ترى، ولربما بذلوا أرواحهم صونًا لعوراتهم، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي: «**إياكم والتعري؛ فإن معكم من لا يفارقكم**» (وهو يعني الله ﷻ).

ولعل من أرخص الابتذال وأخس الوقاحة ما فشا في البيئات الكافرة من المناظر الحقيرة؛ حيث تكشف النساء هناك عن مفاتنهن حتى لتوشك المرأة هناك أن تعري سوءتها في الشارع، وهذه الفضائح لا تستنكر من أولئك الحقراء؛ لأنه ليس بعد الكفر ذنب، ولكن مما يثير الإنكار والاشمئزاز أن نرى بعض نساء المسلمين يقلدن الكافرات في التعري!!

- ومن الآداب الاجتماعية التي ارتضاها لنا رسول الله ﷺ هذه الخمسة التي سمَّاها حقوقًا للمسلم على أخيه المسلم، وهي ما جاء في الحديث المتفق عليه؛ إذ يقول: «**حقُّ المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»، وهذه المجموعة من الآداب الإسلامية هي التي تجمع القلوب على المحبة والوحدة والصفاء وولاء الروح.

إنَّ المسلم إذا سلَّم على أخيه أو عاده في مرضه أو انبرى يساعد ثاكلاً في جنازة حبيبه أو أجاب دعوة عرسه أو شمته حين يعطس.. أقول: حين يفعل هذه المجاملات الحبيبة ينقش

في قلب أخيه مشاعر وعواطف كلها حب وتقدير وإعزاز وإيثار.

- ففي صحيح البخاري: «**إذا عطس أحدكم؛ فليقل: الحمد لله، وليقل أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**»، وفي سنن أبي داود: «**إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإذا زاد** (أي: عطس على ثلاث مرات؛ فهو مزكوم ولا تشميت بعد ثلاث).

- ومع ذلك، فإذا عطس عندك عدة مرات واستمر به العطاس؛ فلا بأس أن تقول له: هذا زكام، وتدعو له بالشفاء، وتصفه ما تعرفه من ناجع الدواء.

هذا، وعلى العاطس أن يقنع وجهه بيديه خشية أن يصل الرذاذ إلى وجوه جلسائه.

- ومن أدب المؤمن أن يحاول جهده ألا يتثاءب في حضور جلسائه، فذلك مما يكسل المجلس، ويطفئ ألق الأنس، وقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله يحبُّ العطاس، ويكره التثاؤب**»، و«**التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَالَ هَا، ضَحِكَ الشَّيْطَانُ**»، ومعنى ضحك الشيطان أن الشيطان يحبُّ الكسل وتقر عينه بمنظر الكسالى؛ لأن الكسل يقعد المسلم عن السعي والعبادة وشهود الجماعة، وهذا ما يُضحك الشيطان من ابن آدم.

- ومن الآداب الإسلامية التي حثَّ عليها رسول الله ﷺ أن يقلل المسلم من المدح، وإذا أراد أن يزكي مسلمًا قال: أحسب فلانًا والله حسيبه، ولا يزكي على الله أحدًا. وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب**».

والحقُّ أن مدح العبد منقصة إلا أن يكون المدح لفت نظر إلى مواضع قدوة حسنة في أخلاق رجل صالح.

- ومن أدب المسلم خفض الصوت واجتناب الضجيج، فقد روى الطبراني أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم فقال: «**إن المصلي يناجي ربه ﷻ فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**»، وفي القرآن الكريم من بين وصية لقمان: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾.

والحقُّ أن خفض الصوت واجتناب الضجيج مظهرٌ للذوق الحضاري، فإذا سمعت في السوق أو في مكان عام رجلاً يصرخ في صخب وغوغائية، فاعلم أنه من أصل وضيع؛ لأن ذوي الأصول الكريمة يستحون.

- ومن أجمل الآداب الإسلامية قلة الحلف؛ لأن الواثق من صدقه لا يحتاج إلى حلف، وما يصدر الحلف الكثير إلا عن حقير، وإلى هذا يشير قوله تعالى في سورة «القلم»: ﴿**وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ**﴾ (والمهين هو المحتقر)، والحلف لا يكون إلا بالله، ومن حلف بغير الله فقد أشرك.

هذه -أيها الأخ القارئ- آداب تديم الصداقة والوداد، ويزكو بها الحب والإخاء، وقد جربت فطردت الشيطان من حمى المحبة، وضمنت بإذن الله للصداقة وضاءتها وإخلاصها وصفاءها وخلودها في الدنيا، ويوم يكون الإخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

من أحاديث الآداب

(٣) الذوق الاجتماعي

هذه هي الحلقة الثالثة التي نتحدَّث فيها عن صفة (الذوق) في أخلاق رسول الله ﷺ، ونورد فيها قصصًا من مواقف الذوق وأدب الملازمة مستقاة من كلامه ومن سيرته العطرة، وإنما أسهبنا في هذا الأدب من آداب النبوة؛ لأن كثيرًا من المسلمين يعتقدون أن الذوق عند الأجانب رجالاً ونساءً وأطفالاً أكثر منه عند العرب.

- لما هزم رسول الله ﷺ قبيلة هوازن، واستحر القتل في ثقيف، قال -عليه الصلاة والسلام- لأصحابه: «**إنَّ قدرتم على بجاد السعدي، فلا يفلتن منكم**»، وكان بجاد هذا رجلاً من قبيلة سعد التي رضع فيها رسول الله ﷺ، وهي بطن من بطون هوازن، وكان ذنبه عند رسول الله ﷺ عظيمًا، فقد أسر أحد المسلمين فقطَّعه بسيفه وحرقه بالنار، فلما جاءت به الخيل إلى رسول الله ﷺ لم يكن يشكُّ أنه سيقتل شر قتلة، لكنه ولحسن حظه رأى الشيماء بنت حليمة السعدية متوجهة صوب رسول الله ﷺ، فاستجار بها؛ لأنه من بني عمومتها، ومشى خلفها، فلما دخلت على رسول الله ﷺ رحَّب بالشيماء، وفرش لها رداءه، فجلست وأسلمت

وشفعت عنده لبجاد، فشفعها فيه، وأعطاها ثلاثة عبيد وجارية وودَّعها ﷺ وداعًا مؤثرًا.

ومن قبل هذه الحادثة بشهر جاءته إلى مكة المكرمة بعد أن فتحها رسول الله ﷺ جاءته امرأة من قريبات حليمة، وأهدت إليه عُكة سمن وجراب أقط، فعرفها رسول الله ﷺ، فأعلنت إسلامها، فسألها عن أمه حليمة وعن أبنائها إخوانه، وعن ابنتها الشيماء أخته، فأخبرته بوفاة حليمة، فذرفت عيناه فقالت له: أخوك وأختاك محتاجون، فأمر لهم بكسوة وجمل ومائتي درهم، فقالت له: نعم والله المكفول كنت صغيرًا، ونعم المرء كنت كبيرًا، كنت والله ومازِلت عظيم البركة.

- وقرأنا في كتاب السيرة أنه لما كسرت رباعيته وشجَّ وجهه يوم أحد شقَّ ذلك على أصحابه حين رأوا ذلك المنظر المؤلم، ورأوا كمية الدم الكبيرة التي نزفت من خده، فقال له بعض الصحابة: لو دعوت عليهم بعد هذا الذي فعلوه، فقال -عليه الصلاة والسلام: «**إني لم أبعث لعانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة.. اللهم اهد قومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

- ولما دست له اليهودية سمًّا في ذراع الشاة وكتفها طلبت منه العفو فعفا، ولما سحره يهودي اسمه لبيد بن الأعصم، ونجَّاه الله من السحر عفا عن لبيد، ولما مات رأس المنافقين عبد الله بن أبي صلى عليه رسول الله ﷺ، وكساه وهو ميت قميصه، مع أن ذلك المنافق كان يحاول دومًا إغاظة رسول الله ﷺ، وهو الذي أشاع حديث الإفك عن عائشة -رضي الله عنها.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- شديد الحياء أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه من أذى أو غيبة أو غش لم يقل: ما بال فلان يفعل ذلك، ولكن يقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا**»، وما عرف أنه واجه أحدًا بما يكره، وعن عائشة -رضي الله عنها- أنه ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال له: لبيك، وكان يجيب دعوة الحر والعبيد والأمة والمسكين، ويعود المرضى، ولو في أقصى المدينة، وكان يقبل عذر المعتذر، وكان يبدأ أصحابه بالسَّلام والمصافحة، وكان لا يمد رجله في المجلس حتى لا يضيق على أحد، وإذا دخل عليه زائر أكرمه، وربما بسط له ثوبه وآثره بالوسادة التي يتكئ عليها، وكان يكني أصحابه احترامًا لهم، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة لهم، ولا يقطع على أحد حديثه، وكان إذا دخل عليه أحد وهو يصلي خفَّف صلاته حتى لا يطول بالزائر الانتظار،

وكان يأتي الصلاة وفي نيته أن يطيلها، فإذا سمع بكاء طفل خفَّفها لما يعلم من جزع أم الطفل.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يحبُّ التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وكان إذا وعظ أوجز، ثم هو لا يعظ كل يوم، ولكن يتخول أصحابه بالموعظة خشية إملالهم وسآمتهم، وكان إذا أتي بهدية أطعم منها صاحبها مخافة أن يكون آثره بها، وهو لا يملك غيرها، ولما قدم عليه وفد النجاشي أبى إلا أن يخدمهم بنفسه، وقال: «**كرَّموا أصحابنا، ونحن نحبُّ أن نكافئهم**».

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يكره أن يقوم له أصحابه ويقول: «**لا تقوموا لي كما تقوم الأعاجم، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد**»، ولقيته امرأة في حاجة لها فقال لها: «**اجلسي يا أم فلان في أي طرق المدينة شئت، أجلس إليك حتى أجيب سؤلك**»، وسئلت عائشة عن رسول الله ﷺ: ماذا يفعل إذا كان في بيته؟ فقالت: يكون في مهنة أهله، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه (أي: جمله الذي ينقل له الماء)، وكان يقم البيت (أي: يكنسه)، ويأكل مع الخادم ويعجن معها، ويحمل حاجته أو بضاعته إلى السوق، ويعود بها، ومن ذوقه أنه كان لا يسمع وشاية أحد بأحد.

- وكان يحبُّ في مجلسه وجسده الطيب والرائحة الحسنة ويحض عليها، وكان يصعب عليه تعب المسلمين ومشقتهم، ويحرص أشد الحرص على فوزهم وفلاحهم، فوصفه ربنا ﷻ في سورة «التوبة» بقوله: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨]، (أي: صعب عليه عنتكم وتعبكم).

- وكان -عليه الصلاة والسلام- أكثر الناس تبسمًا وأحلاهم بشاشة، وكان يمازح بأدب رفيع ولا يقول إلا حقًّا، وما وضع أحد فمه على أذن رسول الله ﷺ يساره إلا أبقى أذنه قريبة من فم المسار إلى أن يكون الذي يساره هو الذي يزيح فمه عن أذن النبي الكريم، وكان إذا مدَّ إليه أحد يده يصافحه لم ينزع يده من يد المصافح حتى يكون المصافح هو الذي ينزع يده أولاً.

- وكان -عليه الصلاة والسلام- يكره أن يركب وخلفه رجل يمشي ليعتني به، وزار ذات يوم سعد بن عبادة، فلما انصرف -عليه الصلاة والسلام- أمر له سعد بحمار على ظهره قطيفة، فركب النبي ﷺ وقال سعد ﷺ لابنه قيس: يا قيس، اصحبْ رسول الله ﷺ. قال

قيس: فلم أمش قليلاً حتى قال رسول الله ﷺ: «**اركبْ معي اركبْ أمامي؛ فصاحب الدابة أحق بمقدمها**»، فأبيت فقال: «**إما أن تركب، وإما أن تنصرف**»، ولم يستسغ -عليه الصلاة والسلام- أن يركب ويكون وراءه إنسانٌ يمشي، من أجل ذلك مدحه ربُّ السموات والأرض بعظمة الأخلاق، فقال له -جلّ وعلا: ﴿**وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٣- ٤].

اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

***

من أحاديث الآداب

آداب الضيافة

إنَّ للضيافة أدبًا يلتزمه الضيف والمضيف، فيكتب الله لكلٍّ منهما أجرًا، ويخلص عندئذٍ أعمالهما لوجهه الكريم.. إنَّ الضيافة في الإسلام من ركائز المجتمع المسلم لها آدابها وأصولها وذوقها، وإذا كان بعض الناس لا يرى في الضيافة إلا تفاخرًا ورياءً وسمعةً ودعايةً، فإن المؤمن يتخذ من الضيافة فرصة لتوثيق أواصر الإخاء الإسلامي، وإحراز رضاء الله، وما أجمل أن يكون لك صديق تتفقده، فإذا طالت غيبته ذهبت إليه، ونزلت عنده ضيفًا خفيف الظلِّ، يأتنس بك أولاده، ويعرفك إخوانه وأقاربه، ويتجلى لك إخاؤه فتعود من عنده، وقد كسبت لك أخًا لم تلده أمك، وأضأت قلبك بحبٍّ من نوع عالٍ فيه السعادة والإخلاص وحب الخير، حتى إنك لتشعر أن ضيافتك تلك كانت من ألوان التربية الإسلامية السامية.

روى الأديب الإمام المحدث القاسم بن سلام أنه زار أبا عبد الله الإمام أحمد بن حنبل، فرأى عنده من تواضع العلماء ما يبهر العقول، قال القاسم -رحمه الله: نزلت عند الإمام أحمد وكنت خجلاً؛ لأنني لم أكن زرته من مدة طويلة، فلما رآني مقبلاً قام فاستقبلني وعانقني وأخذ بيدي، فأجلسني في صدر المجلس، فقلت: يا أبا عبد الله، أليس يقال: صاحب البيت والمجلس أحق بصدر بيته أو مجلسه؟ قال: بلى، إنه يقعد ويقعد من يريد على تكرمة من أهل الفضل. قال القاسم: يا أبا عبد الله، لو كنت آتيك على قدر ما تستحق من إكرامي لكان عليَّ

أن آتيك كل يوم. فقال لي: يا أخي، لا تقل هذا، فإن لي إخوانًا ما ألقاهم في كلِّ سنة إلا مرة، وأنا أوثق في مودتهم من رجال ألقاهم كل يوم. قلت في نفسي: لله ما أجمل هذا الكلام وأحلى هذا البيان!!

ثم لما أردت القيام قام -رحمه الله- معي يمشي إلى باب الدار، فقلت: يا أبا عبد الله، لا تفعل، فقال لي: يا أبا عبيد، قال الشعبي: من تمام زيارة الزائر تمشي معه إلى باب الدار، وتأخذ بركابه. قال القاسم: لم يكتف -رحمه الله- أن علَّمني من فيض أدبه، حتى راح يفيدني بما يرويه عن الشعبي.

وأساسُ ما دار عليه كلام الإمام أحمد مع القاسم بن سلام حديث رسول الله ﷺ الذي رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من السُّنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار**»، وذكر ابن عبد البر أن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إنَّ من السُّنة إذا دعوت أحدًا إلى منزلك أن تخرج معه حتى يخرج.

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحرص الناس على إكرام ضيوفهم، يتخذون التواضع إلى الضيف قربة إلى الله، وفي هذا يقول الشاعر:

وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيفِ مَا دامَ نَازِلاً وَمَا شِيمَةٌ لي غَيرُهَا تُشبهُ العَبدا

وهو يعدُّ البشاشة في وجه الضيف من شعائر الضيافة الكريمة، يقول الشاعر:

وَبَاتَ أَبُوهُم مِن بَشاشَتِهِ أَبَا لِضَيفِهِمُ وَالأُمُّ مِن بِشرِهَا أُمّا

إنَّ خدمة الضيف في عرف المؤمنين شرف عظيم، وما أجمل أن تفتح لضيفك باب سيارته، وتنتظر حتى يسوقها ويمضي في سبيله، وخصوصًا إذا كان الضيف زائرًا في الله ممن لا تخافه ولا ترجوه، يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس -رضي الله عنهما- مرفوعًا: «**من أخذ بركاب رجلٍ لا يرجوه ولا يخافه غفر له**».

وكان زيد بن ثابت ﷺ قارئ القرآن عند ابن عباس -رضي الله عنهما- فلما قام مودعًا أمسك ابن عباس بركابه يودِّعه، فقال زيد: أتمسك لي، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ؟! فقال ابن عباس -رضي الله عنهما: إنا هكذا نصنع بالعلماء.

ويقابل الضيف ذلك بتواضع المؤمن، فلا يبدو منه إدلال ولا يظهر أنه أهل للإكرام المفرط، بل يتواضع ويحاول أن يجلس حيث ينتهي به المجلس ولا يتصدر، وإن عيَّن له صاحب الدار مكانًا لم يتعده إلى غيره؛ لأن الناس أدرى بعورات بيوتهم، ولكن إذا ألح صاحب الدار على الضيف أن يتصدر أو يجلس على تكرمته، فعليه أن يستجيب، نزل ضيف على أبي قلابة فطرح له وسادة فردها الضيف، فقال له أبو قلابة: أما سمعت الحديث: «**لا ترد على أخيك كرامته**».

وقد كان رسول الله ﷺ سباقًا في مفاجأة أصحابه بالكرامة؛ ليشعرهم بمنزلتهم من نفسه، قدم إليه المسور بن مخرمة وفاجأ المسور وهو يعرض عليه محاسن ذلك القباء، يقول له: خبَّأت لك هذا، وصحبه مرة أحد أصحابه، فدخل النبي ﷺ غيضة فيها أراك، ورجع ومعه سواكان أحدهما أعوج والآخر مستقيم، فقدم لصاحبه السِّواك المستقيم، فقال: يا رسول الله، أنت أحق به. فقال: «**كلا، ما من صاحب يصحب صاحبًا إلا وهو مسئول عنه يوم القيامة ولو ساعة من نهار...**» الحديث رواه الجريري في كتابه (الجليس الصالح).

ونعود إلى أدب الضيافة فنقول: إنَّ من أدبها أن يقدم للضيف من أعز ما في بيته من القرى، قيل للأوزاعي: رجل قدَّم لضيفه الكامخ والزيتون، وعنده اللحم والسمن، فقال: هذا رجل لا يؤمن بالله واليوم الآخر.

وبعد؛ فما أجمل أن يعين كل من الضيف والمضيف أخاه على الطاعة، وينبهه إلى صلاة الجماعة، ويجعلان المسجد معتادًا لهما ومترددًا، وأن يزورا أهل الخير والصلاح، وأن يحتفي المضيف بأخيه، ويجعل من تلك الأيام الجميلة ذكريات حلوة، ومن الثابت أن المؤمنين في الآخرة يتذكرون مجالسهم الطيبة في الدنيا، مرَّ ابن عباس –رضي الله عنهما– على ابن مسعود ﷺ وهو جالس في ظل جدار والجو معتدل، فقال ابن مسعود لابن عباس: اجلس نتحدث، فعسى أن نتذكر هذا المجلس في الجنة.

هذا؛ وما أجمل أن يفرح الضيف أولاد المضيف بهدايا من اللعب والحلوى إذا كان قادرًا؛ لتتألف قلوبهم ويحرز برهم وصداقتهم، ومن ثم يشتاقون إلى عودته، ويصغون إلى توجيهه ونصيحته.

***

من أحاديث الأحكام

النهي عن العزلة

أذكر أننا منذ ثلاثين عامًا وأكثر كنا نشاهد عددًا من الإخوة الجزائريين يقيمون في المدينة المنورة في رحاب الحرم الشريف، ويتمتعوا كما أخبرونا بصلاة الأوقات الخمسة في المسجد النبوي الكريم، وبزيارة قبر رسول الله ﷺ وقتما شاءوا، وكان يقيم في المدينة المنورة إذ ذاك أحد أجلاء العلماء، فكان إذا لقيهم لامهم لومًا شديدًا، وقال للشباب منهم: إنَّ بلادكم الآن تخوض معركة حاسمة ضد الكفر والطغيان، وشهداء الجزائر أصبحوا مثلاً للدنيا في مواقف البطولات والتضحيات، وجبهة التحرير وسواها من المنظمات القتالية قد عطَّروا ثرى الجزائر بمئات الآلاف من الشهداء الذين سقطوا في ميدان الجهاد، وعلى ثغورهم ابتسامات البشرى وأنوار الشهادة.

ثم يضيف قائلاً: والله إنَّ موقف بطل منهم على جبال أطلس مجاهدًا في سبيل الله يتحمل البرد والثلوج والقتل ويراها قليلة في جنب الله -موقف واحد من مثل هذا البطل أفضل من عزلتكم بالمدينة سنوات، حتى ولو زرت القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام كل يوم.. عودوا إلى بلادكم حيث الجنة هناك يدخلها الشهداء المحتسبون من أبواب الفردوس الأعلى، واعلموا أن مجاورتكم بالمدينة المنورة تعتبر في المرحلة الراهنة فرارًا من الزحف.

إنَّ المجاهد في سبيل الله قد يكتفى منه بصلاة الخوف يصليها في دقيقتين، لكنها في ميزان الأعمال أفضل من ليالٍ طويلة يقضيها الشابُّ متهجدًا في الحرم الشريف، ويقرأ عليهم ما كتب به الإمام الزاهد المحارب المجاهد عبد الله بن المبارك لصديقه الفضيل بن عياض حين علم أنه لازم المسجد الحرام لا يبرحه:

يا عابدَ الحرمَين لو أبصَرتَنا ... لعَلِمتَ أنّك في العبادَةِ تلعَبُ
من كان يخضِبُ خدّه بدموعِه ... فنُحورُنا بدمائِنا تَتَخَضَّبُ

إلى آخر الأبيات المشهورة.

وقرأنا أن العالم الإسلامي حين دبَّ فيه الانقسام والوهن تعرَّض لهجمتين شديدتين من الكفر الشرس: إحداهما قادتها الصليبية الحاقدة، والأخرى تولى كبرها الكفر المغولي، وفي خضم الدماء التي سالت بها البطاح والأودية انقسم سلوك العلماء إلى نمطين: أولهما سلوك علماء الشريعة الغراء والمحجة البيضاء والسُّنة المطهرة من أمثال عز الدين عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه شيخ الإسلام ابن القيم.. هؤلاء رفعوا لواء الجهاد وتقدموا الجيوش وحثوا الملوك على التضحية في سبيل الله، حتى ولو بملكهم وبأرواحهم.

أما النمط السلوكي الثاني؛ فهو الذي صدر عن المتصوفة الذين اختبئوا في الزوايا يزعمون أن العبادة شيء والجهاد شيء آخر، وأن الذكر من حول موائد الحفلات يغني عن الجهاد والبذل في ساحة المروءات، ثم لما منَّ الله على المسلمين بالنصر وجاء اليسر بعد العسر خرجوا من زواياهم كما تخرج الهوام من الجحور، ولكن بعد أن سقطت أسهمهم، وعرف الناس عجزهم الجبان وعزلتهم المريبة.

خلاصة القول أن الإسلام لا يؤيد العزلة عن الصف والمجتمع والتعارف الإسلامي، حتى ولو كانت عزلة للعبادة، وخصوصًا تلك العزلة في مواسم الجهاد والابتلاء والشدائد، وإنَّ رسول الله ﷺ وصحابته الكرام لم يعتزلوا المجتمع الإسلامي ليقبعوا في المساجد، لكنهم خاضوا غمار الحياة، مساهمين في إسعاد المسلمين وهداية الحائرين، متعاونين على البر والتقوى، مقاومين للإثم والعدوان.

- في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم**».

- ونسب رزين إلى الشيخين والترمذي: «**من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام**».

- وفي الحديث المتفق عليه ما يبيِّن فضل الاختلاط واجتناب العزلة؛ إذ العزلة لا تترك فرصة للمؤمن أن يؤدي الحقوق والواجبات الاجتماعية، قال رسول الله ﷺ: «**للمؤمن على المؤمن خصال: يعوده إذا مرض، ويشهده إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، ويسلِّم عليه إذا لقيه، ويشمته إذا عطس، وينصح له إذا غاب أو شهد**».

- وقد كره النبي ﷺ أن يترك العبد الزواج ليعتزل الناس ويتعبد، ففي صحيح البخاري

أن رسول الله ﷺ ردَّ على عثمان بن مظعون التبتل، أي أن عثمان بن مظعون استشار رسول الله ﷺ أن يترك الزواج خشية التبعات الملهية عن العبادة، فلم يأذن له بذلك.

- وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة**»، وفي الأثر: «**لا رهبانية في الإسلام**».

وأما الأحاديث المرغبة في العزلة؛ فتحمل جميعها على أنها تطبق حين تعم الفتن، ويصبح الاختلاط خطرًا على دين الإسلام وأخلاقه، ويكون الإصلاح ضربًا من ضروب المستحيل، وعلى هذا يحمل الحديث الذي في الصحيحين: «**خير الناس رجل يجاهد بنفسه وماله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**»، وما ورد في وصايا الصالحين من اعتزال الناس.

والحقُّ أن مخالطة الناس والصبر على أذاهم وخوض المجتمع في رجولة وثقة يتيح للمؤمن فوائد كثيرة؛ إذ بهذا الاختلاط يستطيع أن يعلم ويتعلم، ويستطيع أن ينتفع وينفع، ثم يتيح له الاختلاط أن يؤدب ويتأدب، وأن يؤنس ويستأنس، ويحل عقدة الوحشة من العزلة، ويهيئ له الاختلاط أن يخالط أهل التقوى، وينال ثواب السعي والتسليم، كما ينيل الناس ثواب مساعدته والتسليم عليه، وكيف يتأتى له بالعزلة أن يعود مريضًا أو يحضر أملاكًا أو يشهد جنازة أو يدعو لقوم أو يدعو الناس له، أو يتواضع لضعيف، وعلى كل حال فالمؤمن الموفق هو الذي يعرف متى يخالط الناس ومتى يعتزل، وما أحلى أن يكون اختلاط المؤمن عبادة، وأن يكون اعتزاله عبادة، وذلك حين يكون اختلاطه بأهل الدين، ويكون اعتزاله لأولياء الشيطان.

النهي عن العزلة والانغلاق

بعض الناس تعجبه العزلة يرى فيها نجاةً من المشكلات وراحة من القيل والقال واجتنابًا للنميمة وتفرغًا للعبادة وللأهل والولد، على أن هذا الطريق وإنْ بدا أقرب إلى العافية، فإن السُّنة لا تقره، ونحن نقتبس أسوتنا من رسول الله ﷺ الذي هو أسوة المؤمنين وقدوة الأبرار، وقد كان ﷺ ليله ونهاره في مخالطة الناس واحتمال الناس والصبر على أذاهم

وعلاج مشكلاتهم، والإصلاح بينهم وقضاء مصالحهم.

جاء في سنن الترمذي ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجرًا من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم**»، وللديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**دخول المؤمن على المؤمن نزعة** (أي: سعة وفرحة وسرور)»، وللطحاوي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا التقى المسلمان فتصافحا وحمدا الله واستغفرا غفر الله ﷻ لهما**»، وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من مسلم يدخل على أخيه المسلم فيلقى إليه وسادةً إكرامًا له إلا غفر الله له**».

على أن للمخالطة آدابًا يحرص عليها المؤمن، وهذه الآداب كان يلتزمها رسول الله ﷺ ويأخذ أصحابه الكرام بالالتزام بها، وهي آداب تسعد من يأخذ بها، وتجعل له في الناس قدم صدق ولسان صدق، كما تكسبه محبةً في القلوب وجمالاً في الأعين والنفوس، وهي آداب متنوعة وردت في كتاب الله وسُنة رسول الله، منها: آداب مع الضيف والزائر، ومنها آداب مع الشيخ والصغير، فمن آداب الزيارة ألا تتكرر كثيرًا فيسأم المزور ويستثقل الزَّائر، قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن حبان: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**».

ومنها أن يبدأ الزائر بالاستئذان ثم السلام، قال رسول الله ﷺ: «**من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه**»، وفي صحيح البخاري: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثًا، فلم يؤذن له؛ فليرجع**».

ومن آداب الزائر إذا وقف على باب قوم واستأذن ألا يتصدر بوجهه الباب، بل ينحرف يمينًا أو شمالاً، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم؛ فقد حل لهم أن يفقئوا عينه**».

وأما المزور الذي ينزل عنده أخوه؛ فإن له آدابًا في استقبال زائره، منها: أن يكرمه بوجهه وما تيسر من طعامه، كما يكرمه بترحابه وإراحة مجلسه والإقبال عليه والاهتمام بكلامه، قال -عليه الصلاة والسلام- فيما رواه البزار: «**إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه**»، وقال فيما رواه البيهقي والحاكم: «**واكل ضيفك؛ فإن الضيف يستحي أن يأكل وحده**».

وعلى المزور أن يلقى زائره بالتسليم والمصافحة والاستغفار لذنبه، قال رسول الله ﷺ:

«**إذا التقيتم؛ فتلاقوا بالتسليم والتصافح، وإذا تفرَّقتم؛ فتفرَّقوا بالاستغفار**».

وعلى المضيف أن يعلم أن ما يقدمه لضيفه بركة وشرف، وأنه لا ينقص من رزقه شيئًا، يقول النبي ﷺ: «**من أكرم أخاه المسلم؛ فإنما يكرم الله**» (رواه ابن بابويه).

وعلى الزائر أن يأكل مما يقدَّم إليه ولا يرده دون أن يذوقه، وعليه ألا يذم أي أُدم ولو كان خلا.

ثم إن على المزور أن يتعهد ضيفه بالاحترام؛ لأن في ذلك مغفرة للذنوب، يقول النبي ﷺ فيما رواه الأصبهاني: «**الضيف يأتي برزقه، ويرتحل بذنوب القوم**» يعني أن قدوم الضيف مبارك يجلب الرزق، ثم إن الضيف إذا ارتحل مسرورًا من كرم المعاملة وحلو البشاشة كفَّر الله ذنوب من أكرمه.

هذا، ومن أدب المخالطة أن تستأذن مضيفك عند خروجك، كما استأذنته عند دخولك.

ومن أدب الاختلاط أن تجالس الصالحين والعلماء، فينالك من صلاحهم ودعائهم وبركتهم، وأن تبتعد عن جلساء السوء.

ومن أدب الضيافة أن تشيِّع الضيف إلى باب الدار، جاء في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من السُّنة أن تشيِّع الضيف إلى باب الدار**»، وللطحاوي أن رسول الله ﷺ نهى أن يستخدم الضيف.

ومن أدب المخالطة ألا تشجِّع الفاسقين على زيارتك في بيتك؛ لأنهم شؤم، وربما قلَّدهم أبناؤك؛ ففي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تصحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**».

وهذه بعض أقوال الرسول ﷺ في أدب الاختلاط بالناس:

روى الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**من الجفاء** (أي: من الخشونة والهمجية) **أن يدخل الرجل منزل أخيه؛ فيقدم له شيئًا فلا يأكله، والرجل يصاحب الرجل في الطريق فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه**».

وللطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل دار قوم؛ فليجلس حيث أمروه، فإن القوم أعلم بعورة دارهم**».

وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليشمته جليسه، وإن زاد على ثلاث؛ فهو مزكوم ولا تشميث بعد ثلاث**».

وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**إِذَا كَانَ ثَلاَثَةٌ فَلاَ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ**».

وفي مصابيح السُّنة أن رسول الله ﷺ قال: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**».

ومن أدب المخالطة أن تحافظ على حرمة المجلس، وإذا استشارك أخوك في أمر سري؛ فلا تحدث بسره، روى أصحاب السُّنن أن سول الله ﷺ قال: «**المستشار مؤتمن**»، وفي سنن أبي داود: «**الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ إِلاَّ ثَلاَثَةَ مَجَالِسَ: سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ، أَوِ اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**».

ومن آداب المخالطة أن تختار أخلاءك، ففي مسند أحمد: «**المرء على دين خليله؛ فلينظر أحدكم من يخالل**».

ومن ذوق المخالطة احترام الكبير والصغير، روى الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**استوصوا بالكهول خيرًا، وارحموا الشباب**».

هذا، ومن تمام الفائدة في أدب المخالطة ألا تفرق بين اثنين إلا بإذنهما، وألا تأخذ قلم أخيك أو عصاه بدون طيب نفسه، كما يفعل بعض الثقلاء، وأن تدخل السرور على قلوب الأطفال، وأن تداوم على الود القديم وتحفظ ود أبيك، وأن تؤنس إخوانك وتصنع معهم المعروف، يقول النبي ﷺ فيما رواه الديلمي: «**من خرج مع أخيه في طريق موحش ليؤنسه، فكأنما أعتق رقبة، ومن سقى أخاه قدحًا من ماء وهو عطشان كأن يعتق رقبة**»، وإذا رأيت على ملابس أخيك قذى فأزله، ففي صحيح البخاري: «**المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيبًا أصلحه**».

***

obeikandi.com

فضل الاختلاط بالناس وعدم العزلة

الحمد لله الذي جعل المؤمنين إخوانًا في طاعته، وجمع بين أمة محمد ﷺ على محبته، وفرض عليهم الجهاد لإعلاء كلمته، اللهم صلِّ على محمد وآله وصحبه وعترته، وارض اللهم عن كلٍّ من حكَّم دينه وارتضى حكم شريعته.

وبعد؛ من آداب المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًّا قائمًا بالمسئولية الاجتماعية لا يتهرب منها ولا يعتزل ولا ينسحب من مواقف البناء والرجولة والواجب، ومن هنا فإن دين الإسلام لا يرضى للمؤمن أن يترهب؛ لأن الرهبانية انسحاب من مضمار الرجولة الذي به ينمو المجتمع ويزكو ويمتد، ولا رهبانية في الإسلام؛ لأن الرهبانية اعتراف باليأس من صلاح المجتمع وفقدان للثقة بالنفس، وهي ابتداع نصراني لم يؤيده الإسلام، لما فيه من منافاة للفطرة وإنكار لغريزة الجنس التي فطرت الإنسانية عليها لبقاء النوع وصناعة الطاقات؛ ففي السيرة أن عثمان بن مظعون ﷺ أراد أن يتبتل (أي: يترك الزواج ليتفرغ للعبادة)، فردَّ عليه الرسول ﷺ فكرة التبتل، وقال -عليه الصلاة والسلام- لمن فاخر أنه يعتزل النساء: «**من رغب عن سنتي؛ فليس مني**».

إذا قال لك مسلم: إنه يجب اعتزال الناس وينبذ مخالطتهم، وأنه من بيته إلى مسجده؛ فاعلم أنه ترك الأسوة الحسنة برسول الله ﷺ؛ لأنه -عليه الصلاة والسلام- كان أكثر الناس عشراء وأصدقاء وأصحابًا، وكان أجمل الناس صحبة لهم؛ يزورهم في بيوتهم، ويلاعب أطفالهم، ويدعو لهم ولآل بيوتهم، ويدعوهم إلى الألفة والمحبة، جاء في مسند أحمد -رحمه الله- من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**».

ولقد فضَّل رسول الله ﷺ من يخالط الناس، ويلقى منهم أذى فيصبر على أذاهم، أقول: فضَّله على من يعتزل الناس طلبًا للعافية، وهذا هو السلوك النبوي الذي ارتضاه رسول الله ﷺ حين اشتد من حوله أذى المشركين.

وفي صحيح رزين أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أنبئكم بشراركم؟ الذي يأكل وحده،**

ويجلد عبده، ويمنع رفده» (أي: يحبس عطاءه عن الناس)، وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ كان يكثر زيارة الأنصار خاصة وعامة، فكان إذا زار خاصة زار الرجل في منزله، وإن زار عامة أتى المسجد، وفي حديث أنس ﷺ: «**ما من عبد مسلم أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه منادٍ من السماء أن طبت وطابت لك الجنة**».

ومن ثمَّ، فإذا طلبت من رجل ذي جاه أن يشفع لك أو يتوسط لقضاء حاجتك، فقال لك: أنا والله معتكف عن الوساطات، وأتيت آخر فخرج معك في حاجتك، ولم يزل معك حتى عمل جهده؛ فاعلم أن الثاني هو الذي أدرك السُّنة وأحسن القدوة، ففي الحديث الذي رواه رزين عن الشيخين: «**مَن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبَّت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام**»، وفي صحيح مسلم: «**والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»، وللطبراني في المعجم الكبير أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ لله خلق خلقهم لحوائج الناس، يفزع الناس إليهم في حوائجهم، أولئك الآمنون من عذاب الله**».

وحسبك دليلاً على أن الإيجابية هي خلق المؤمن، وأن السلبية منافية لروح الإسلام ما حدث في العصور المتأخرة حين هاجم الصليبيون ديار الإسلام، وداهم المغول حضارة الإسلام فقد أقبل العلماء العاملون على الجهاد ووضعوا أيديهم في أيدي حكامهم المسلمين، فتقدَّموا الصفوف، ورفعوا روح المجاهدين، وأسدوا النصح والمشورة للقادة، كما فعل عز الدين بن عبد السلام إبان معركة عين جالوت، وكما فعل قبل ذلك فقهاء المسلمين مع صلاح الدين، وكما فعل بعد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام ابن القيم، مع من أسلم من سلاطين المغول، فهم لم يقبعوا وراء الكتب يخوفون الناس ويزهدونهم، ويجادلون في مسائل خيالية، ولكنهم شمَّروا للأمر عن ساعد الجهاد، وبعثوا في المسلمين روح الاستشهاد، واستشهد كثير من العلماء في المعارك، فكان أولئك العلماء بحق خلفاء النبي ﷺ على دين الله وحوزة الإسلام.

أما المتصوفة الذين كانت زواياهم وتكاياهم تعج بالبطالة؛ فقد لزموا تلك الزوايا، ولم يعبئوا بصرخات الأطفال والصبايا، واكتفوا بالدعاء الخالي من الهم، وبذلك سقطت في الناس أسهمهم، وكثر في الناس محتقروهم؛ لأنهم خالفوا بقعودهم سُنة محمد والمرسلين،

وتشبَّهوا بمن قال لهم الله ﷻ: ﴿رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة:٨٣].

إنَّ الإنسان أليف بطبعه وهو اجتماعي مدني يكره أن ينفرد وحده، وهو ما سمِّي إنسانًا إلا لأنه يأنس بغيره، ويحبُّ أن يعيش منتميًا إلى أسرة، ثم إلى حمولة فبلدة فدولة أو وطن، ثم إلى أمة، أما ما ذهب إليه أبو تمام في بيته الذي يقول فيه:

لا تَنسَيَن تِلكَ العُهودَ فَإِنَّما سُمّيتَ إِنسانًا لِأَنَّكَ ناسي

فذلك من تهويمات الشعراء وتعليلاتهم الخيالية.

وإذا كانت مجموعات عظيمة من الطير والوحش تحب العيش في المجتمعات، فإن الإنسان كما يبدو من اسمه أولى بمثل هذا الانتماء الحضاري، والإسلام دين الفطرة النقية، ومن ثم فكلما مال الإنسان إلى التفاعل الاجتماعي كان ذلك دليلاً على سمو فطرته وتألُّقها بسنا الحضارة، وقربه من روح الإسلام ومنهج نبيِّنا -عليه الصلاة والسلام، ومن أجل هذه الإيجابية في السلوك الإيماني شرع الإسلام من السُّنن والآداب ما يزداد به المجتمع الإنساني تقاربًا وألفةً ومحبةً وائتناسًا ووحدة صف، ولعل أركان الإسلام كلها دروس في الحضارة الاجتماعية التي يتحقق بها التحاب التواد والتراحم والتعاطف، فشهادة أن لا إله إلا الله تشعرك أن الإنسانية كلها تنظمها أخوة في محراب العبودية لله.

والصلاة لقاءات يومية تجدد الفطرة الحضارية للإنسان المسلم حين تتيح له مشاهدة أخيه في بيوت الله وأثناء التعبد له.

والصوم درس حضاري ينظم الأمة في سلك نظام واحد يوحِّد المشاعر، ويسمو بها عن شهوات البهيمة؛ ليرقى بها إلى آفاق الملائكة حين يفاخر الرب عباده النورانيين من سكان السماء بعباده الترابيين من سكان الأرض.

والزكاة درس حضاري في غاية السمو يأبى على المؤمن أن يكرس نعمته لشهوات نفسه، ألا ما أجمل الزكاة لفظًا ومعنى.. إنَّ الفعل زكا يزكو معناه طهر يطهر، ومعناه نما ينمو، والزكاة حقًّا تطهِّر النفس من أوضار الشح والأنانية واللؤم والدناءة، وتسمو بها إلى منازل الإحسان ومدارج الكرماء الأسخياء ذوي النفوس المتحضرة الوضيئة، وإلى هذا أشارت

الآية الكريمة في سورة «التوبة»: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أما الحج؛ فحدِّث عن توجيهاته الحضارية ولا حرج حين ترفرف على أهل الموسم أعلام الصفاء ورايات الإخاء، وينتظمون في دورة أخلاقية راقية تستمر أيامًا معدودات، قد تمتد إلى أشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال، بل كلها حب ومساواة وصلاح بال.

فيا أخي المسلم: احرصْ على مخالطة إخوانك، وأشع في أجوائهم النصح والسلام والبشر والإحسان والكرم، وإياك وعزلة تمرضك بالوحشة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

* * *

من أحاديث الآداب

التواصل والوداد في المجتمع المسلم

يحرص الإسلام على أن يسود المجتمع الإسلامي جو من الصفاء والتواصل والوداد الجميل؛ ليسعد هذا المجتمع الوضيء بالسعادة والأنس، ولتتوثق أواصره بالتزاور المؤنس والصداقة الممتعة، ومن هنا منع الإسلام أن يتهاجر المسلمون أو يتدابروا أو يتعادوا، وأن يستبدلوا بالتقاطع تعاونًا على الخير وترابطًا يحقق جمال الحياة ولذة البشاشة.

يريد الإسلام للمسلمين أن تكون حياتهم كأنها روضة غناء لا ترى فيها إلا مباهج النفس وهناءة القلب، ولا تستروح فيها إلا شذا الزَّهر وحباء الثمر وروح الجمال وريحان المحبة، ولهذا حرَّم الإسلام أن يهجر المسلم أخاه المسلم؛ لأن الهجر يقطع أرحام الولاء، ويشيع في المجتمع الشقاء، وينمي في النفوس أحقادها، ويشعل في المشاعر أضغانها.

مِن الناس مَن إذا قاطعه أخوه أو جاره لم يهنأ له بال حتى يسعى في مصالحته، ويعتذر عن إساءته، ويهوِّن أمر الدنيا في عين صاحبه، ثم لا يرتاح له ضمير حتى يعيد المياه إلى مجاريها والمحبة إلى مغانيها.

ومِن الناس مَن يكون له جلد على المقاطعة والهجر والعداء، كأنما قد قلبه من الصخر الأصم، ثم لا يزال هاجرًا أخاه حتى يأتي إليه معتذرًا، ولو كان أخوه هو المحسن البريء، وكان هو الخاطئ المعتدي المسيء.

إنَّ للمؤمن أدبًا رفيعًا إزاء الحرص على جو الصفاء الذي تجمله الصداقة، ويجمِّل الحياة ويتألف به قلوب معارفه وخلطائه، فهو يسلك على ما رسم رسول الله ﷺ من منهج يجمِّل الحياة العاجلة، ويسعد المرء في الآجلة، ويتحقق هذا المنهج الكريم بالوسائل الآتية.

أولاً: أن يصل من قطعه مهما أصر على القطيعة، وألا يسمح أن تدوم المقاطعة أكثر من ثلاثة أيام مهما تكن أسبابها، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام**».

ثانيًا: أن يشعر دومًا أن كل مسلم في مشارق الأرض مغاربها هو أخوه، وهي أخوة أبرمها الله من علياء سمواته؛ إذ يقول: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات: ١٠]، فيدعو لإخوانه المسلمين بظهر الغيب، ويحب كل مسلم سواء رآه أم لم يره، فإذا أشرب قلبه هذا الشعور تمتع بحلاوة الإخاء، وشعر أن كل الدنيا من حوله جنة من الإخاء. إنَّ كل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله يصبح له عليك حقوق كثيرة من بينها أن تدعو له بالمغفرة كلما دعوت لنفسك.

ثالثًا: أن يلتزم كل مسلم بأجمل ألوان التعامل مع أخيه المسلم، فيعامله في البيع والشراء وسائر المعاملات بالحق والعطف والرحمة، وألا يغشه أو يخدعه، وأن يحترمه على كافة أحواله.

وإلى الأخ القارئ هذه التوجيهات النبوية النبيلة التي إذا التزمها المسلمون تسنموا قمة السلوك الحضاري، وأظلهم أجمل أنواع الروح الأخوي:

- يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك**».

- ويوصينا رسول الله ﷺ أن نحترم شعور إخواننا بحيث لا يحسُّون وهم يرافقوننا إلا بأسمى مشاعر المعنوية الرافعة، يقول رسول الله ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة؛ فلا يتناجى اثنان دون الثالث**».

- ويوصينا الرسول الكريم ﷺ ألا نشغل ألسنتنا كلمة نابية تنال من إحساس أخينا المسلم، فيقول: «**ليس المؤمن بطعانٍ ولا لعانٍ ولا فاحش ولا بذيء**».

- وفي مجال العلائق الاجتماعية يوصينا النبي ﷺ أن تكون العلاقة بين الصغير والكبير علاقة التوقير، وأن تكون العلاقة بين الكبير والصغير علاقة رحمة، يقول رسولنا ﷺ فيما رواه البخاري: «**من لم يرحم صغيرنا ولم يوقر كبيرنا؛ فليس منا**».

- ويحثُّ رسولنا ﷺ أمته أن يكونوا دائمًا مفرجي كروب وصانعي معروف، وأن يجند المسلم نفسه لقضاء حوائج إخوانه، فيقول -عليه الصلاة والسلام: «**أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف يوم القيامة**».

- ومن السلوك الحضاري الذي يشيع الصفاء المشاركة في الصفاء والكدر، وذلك بأن يظل المجتمع الإسلامي متواصلاً بالحقوق الإنسانية، يقول رسول الله ﷺ: «**حقُّ المؤمن على المؤمن خمس: رد التحية، وإجابة الدعوة، وشهود الجنازة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس إذا حمد الله**».

- هذا، وإن كرم الضيافة وأداء حقوق الضيف وإشاعة جو من السرور من حوله.. كلُّ هذه مظاهر من السلوك الحضاري الذي يؤلف القلوب ويشيع المحبة، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليكرم ضيفه**»، وفي سنن ابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: «**إنَّ من السُّنة أن يخرج الرجل مع ضيفه إلى باب الدار**».

- ومن أجمل السلوك الحضاري أن يتجنب المؤمن الشماتة بأخيه أو تعييره بعيوبه؛ لأن الدنيا تنقلب، وإذا شمت بأخيك اليوم فقد تتحول الأيام فتقع أنت فيما يشمت عدوك، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «**من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله**».

- ومن الجرأة الأدبية الحضارية التي تدل على الشجاعة الشريفة ألا تسمح بأي حال أن يذل أخوك المؤمن في حضورك، بل عليك أن تهب لنصرته ورفع الحيف إذا وقع عليه، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد: «**من أذل عنده مؤمن، فلم ينصره وهو يقدر على نصرته أذله الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة**».

- وهذا حديث موجه إلى موظفي الشئون المالية؛ إذ أن كثيرًا منهم قد يجر على نفسه الكراهية بعرقلته وتعقيده أمور المراجعين.

إنَّ موظف الشئون المالية لا ينفق من مال أبيه، ولكنه يعطي الناس حقوقهم من مال الدولة أو المؤسسة، ولكنه مع ذلك يستطيع أن يكتب له أجر المتصدق إذا هو سهَّل أمور الناس، وأرشدهم إلى أقرب الطرق لأخذ نقودهم، وبهذه يصبح متصدقًا مع أنه لم يدفع شيئًا من جيبه، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ - وَرُبَّمَا قَالَ: يُعْطِي - مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلاً مُوَفَّرًا طَيِّبٌ بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ**».

- ومن التصرفات الحضارية التي تتألف بها القلوب أن تجيب دعوة أخيك إذا دعاك إلى زيارة أو عدم مقاطعة الصلة ثرى؛ لأن دخولك بيت أخيك وأكلك من طعامه يملأ قلبك بحبه وقلبه بحبك، يقول رسول الله ﷺ: «**لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ**»، والكراع : مستدق الساق من الغنم والبقر العاري من اللحم.

من أحاديث الآداب

البشاشة والدعابة

تعوَّدتُ في أغلب الأحاديث أن أحدث الإخوة عن زهد رسول الله ﷺ وعن خشوعه لله وبكائه من خشيته، وعن طول عبادته وجلده على الصيام والقيام، وعلى الجملة، فقد كان جلُّ أحاديثي مما يبعث في النفس البكاء على التفريط والخشية من الرب الكريم الجبار والأسف من الذنوب المردية والعيوب المخجلة.

أما في هذه الحلقة؛ فسوف يكون الحديث عن بشاشة رسول الله ﷺ، وعن ابتسامته الجميلة التي لم تكن تفارق ثغره، وعن استجابته للنكتة الحلوة تصدر عن بعض أزواجه أو أصحابه، فلقد روي عنه ﷺ أنه كان من أكثر الناس تبسمًا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب خطبة وعظ.

كان -عليه الصلاة والسلام- لا يضحك ضحكة عالية تبدو فيها لهاته، لكنه كان يبتسم حتى تبدو نواجذه.

كان -عليه الصلاة والسلام- يتبسم لزوجاته، ولأصحابه، ولبعض كلام الأعراب، ويديم الابتسام لضيفه، وقد أوصى أصحابه أن يلقى بعضهم بعضًا بوجه طليق، وكان يعد هذا الأمر صدقة، ويقول: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**»، ولا غرو، فرُبَّ ابتسامة بريئة تنطلق من منطلق المحبة والعطف هي أعظم عند الله من ألف دمعة يتظاهر بها صاحبها بالخشية، وهي دموع تماسيح، فليس كل ابتسامة تعد بشاشة وطلاقة وثوابًا، فرب ابتسامة صفراوية كأنها ذوب السم، ورب ابتسامة سخرية أو شماتة تكتب عند الله ذنبًا فاحشًا، والأعمال بالنيات وللمرء ما نوى، وربك على كلِّ شيء حسيب يعلم خائنة

الأعين وما تخفي الصدور، ويقضي بالحق ويحكم بالعدل.

إنَّ في الإسلام ضحكًا مرفوضًا ألا وهو ضحك السخرية بعباد الله، وضحك الشماتة بخلق الله، ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾ [المطففين: ٢٩]، ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾ [الهمزة: ١]، ويخاطب المجرمين، فيقول في سورة «المؤمنين»: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ۞ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [المؤمنون: ١٠٩- ١١١]، وفي سورة «الزخرف» يتحدث عن قوم فرعون واستقبالهم لآيات الله التي عرضها عليهم موسى، فيقول ﷻ: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ**﴾ [الزخرف: ٤٧].

إنَّ الضحك أحيانًا جمال يتجلى في وجوه أهل الجنة: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۞ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ**﴾ [عبس: ٢٨، ٢٩]، وأحيانًا يكون الضحك إجرامًا كما نسمع في سورة «المطففين»: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ**﴾.

لقد كان رسول الله ﷺ يضحك، وهذه نماذج من ضحكه، ففي سنن ابن ماجه: «أصبح رسول الله ﷺ بالمزدلفة، فرآه أصحابه يضحك (وقيل: يتبسم)، فسأله أبو بكر وعمر- رضي الله عنهما- بأدبهما المعروف: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكك أضحك الله سنك؟ قال: «**إنَّ عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه، ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه**».

- ومن دعابته -عليه الصلاة والسَّلام- ما روي عنه أن عليًّا ﷺ سأله في ساعة سرور: أيهما أحب إلى رسول الله ﷺ ابنته الزهراء أم زوجها علي، فأجابه -عليه الصلاة والسَّلام- وهو يبتسم: «**فاطمة أحب إليَّ منك، وأنت أعز عليَّ منها**».

- ورآه أحد الصحابة، وقد أردف على ظهره حسنًا وحسينًا، وهو يضحك لهما، ويقول: «**نعم الجمل جملكما، ونعم العدلان أنتما**».

- وخرج في بعض أسفاره بصحبة عائشة -رضي الله عنها- وهي فتاة صغيرة خفيفة اللحم، فأمر من معه أن يتقدموا، فلما رأى نفسه خاليًا، قال لعائشة: «**تسابقين؟**» فقالت: نعم، فتسابقا فسبقته، ثم بعد أن كبرت عائشة، وحملت اللحم أعاد -عليه الصلاة والسَّلام- السباق، فسبقها لثقلها، فقال لها: «**هذه بتلك**» في جو من الابتسام الزوجي العطوف، وكان السباق الثاني بعد أن قارب الستين، وهو سباق يدل على فتوة الروح وروح البشاشة وحب الرياضة والسماحة والدعابة الطهور.

- وقد حدثت حادثة له كان ﷺ بعدها كلما ذكرها ضحك، وخلاصتها أن أبا بكر ﷺ سافر إلى الشام ومعه نعيمان بن عمرو (أشهر الأنصار دعابة)، وصحابي آخر اسمه سويبط بن حرملة، ووكل سويبطًا بالطعام، وفي إحدى غيبات أبي بكر طلب نعيمان طعامًا من سويبط، فلم يعطه، فما كان من نعيمان إلا أن ذهب إلى قوم يعرفهم، وقال لهم: عندي عبد أريد أن أبيعه، وهو عبد فصيح شديد الجدل، وقد يقول لكم: إنه حرٌّ، فلا تصدِّقوه، فاشتروه من نعيمان وذهبوا معه، حتى إذا وصلوا إلى سويبط وضعوا عمامته في عنقه، وشدوا بها يديه وهو يصيح أنا حرٌّ، وهم لا يصدقونه، فلما رجع أبو بكر ﷺ سأل عن سويبط، فلما علم بالأمر ذهب إلى القوم، وافتداه ونعيمان يقول له: كدت تقتلني جوعًا، وإنْ عدت إليها بعتك مرة أخرى، ولما رجعوا إلى المدينة أعلموا رسول الله ﷺ، فكان -عليه الصلاة والسَّلام- يبتسم كلما قابل سويبطًا أو نعيمان، وهو يذكر تلك الصفقة.

- وجاء شيخ من شيوخ الأعراب على راحلة سمينة مكتنزة، فلما عقلها على باب رسول الله ﷺ نظر إليها نعيمان، وكان اللحم في المدينة شهوة وأمنية، فأحضر بعض الشباب وقال لهم: كيف أنتم وشبعة من لحم هذه الناقة الكوماء، ويغرم ثمنها رسول الله ﷺ؛ لأن الضيف ضيفه، وفي الحال ذبحها نعيمان، فلما رآها صاحبها صاح (واعقراه)، واختبأ نعيمان ﷺ تحت كومة قش في بيت أحد الصحابة، لكن ذلك الصحابي أخبر رسول الله ﷺ بمخبأ نعيمان، فسحبه من بين القش وجعل يمسح عن وجهه القش والتراب، وهو يبتسم، وأمر للضيف بناقة.

- ورأى نعيمان بالمدينة رجلاً يبيع عَسلاً، فأخذه إلى بيت رسول الله ﷺ، وقال له أهل

هذا البيت: طلبوا مني أن أشتري لهم عسلك، وحمل عسل الرجل وطفق يطعم منه آل بيت رسول الله ﷺ، ويقول لهم: هذا هدية مني لرسول الله ﷺ، ولما خرج قال للرجل: سيخرج لك صاحب البيت، ويدفع لك الثمن، ولما خرج رسول الله ﷺ وجد الرجل في انتظاره يطالبه بثمن العسل، فأدرك -عليه الصلاة والسلام- حيلة نعيمان، وسأله: «**ما حملك على ذلك؟**» قال: حب الخير لك يا رسول الله، لقد أردت أن تأكل عسلاً، فاحتلت لذلك.

وكانت له -عليه الصلاة والسلام- دعابات كقوله لإحدى العجائز «لن تدخل الجنة عجوز»، وكقوله لأحد الأعراب، وقد طلب منه أن يحمله على بعير فقال له: «**لا حملتك على ولد الناقة**»، وكقوله لإحدى النساء: «**إن زوجك في عنقه بياض**»، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للصحابة وبينهم بدوي: «**إِنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ؟ قَالَ: بَلَى، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ. قَالَ: فَبَذَرَ فَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ، فَكَانَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، فَيَقُولُ اللهُ: «دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ، فَإِنَّهُ لاَ يُشْبِعُكَ شَيْءٌ**». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاللهِ لاَ تَجِدُهُ إِلاَّ قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا، فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ.

من أحاديث الآداب

الحلم واللين

الحمد لله الذي جعل الإسلام دينه المبين، وأشهد أن لا إله إلا الله، يحب أهل الرفق والسماحة واللين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الدنيا ورحمة الله للعالمين، اللهم صلِّ عليه وسلم وعلى آله وصحبه الأئمة الهداة المتقين.

وبعد؛ هنالك فضيلة إذا وجدت في المؤمن أحبته القلوب وصادقته الأرواح واجتمعت حوله العواطف النبيلة والمشاعر الجميلة.. هي خصلة مدح الله ﷻ بها نبيَّه محمدًا ﷺ، وحثه على التمسك بها؛ لأنها هي التي ألفت القلوب من حوله، وجمعت المؤمنين على محبته.. هذه الخصلة هي لين الجانب أو سماحة النفس أو سماحة الشمائل، ولين الجانب فضيلة مركبة من فضائل عدة هي الرفق في كلِّ شيءٍ، والحلم عن المسيء، والعفو عند المقدرة، والتأني قبل

العقوبة.. كلُّ هذه يمتزج بعضها ببعض فيتكون منها مزيج مبارك هو لين الجانب، يقول ربنا ﷻ مخاطبًا نبيَّه ﷺ في سورة «آل عمران»: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.

هذا الخلق ألزم ما يكون للدعاة والوعاظ والمتصدرين لهداية الناس، فكثير من الشباب كرهوا الدين بسبب الدعاة؛ لأنهم رأوا كثيرًا منهم أهل تشدد وفظاظة، إذا أفتاك كرَّهك في دينك، وإذا كلَّمته في أمر نفر منك.

إنَّ قدوتنا في الدعوة هو رسول الله ﷺ الذي خاطبه ربه ﷻ فوصفه بلين الجانب، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾.

من الناس من يكن هينًا لينًّا سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا تقاضى دينه، وتراه متسامحًا في حقه عفوًا عن زلة صديقه، لا تكاد ترجوه في أمر حتى يقتنع، ولا تكاد تدعوه إلى مصالحة حتى يستجيب، ومن الناس من تراه في كل أموره عنيفًا لا يقبل عثرةً، ولا يعفو عن زلة، ولا يقبل صلحًا إلا أخذ الحق وتجاوزه إلى بعض الباطل، ثم إنك تراه جواظًا مستكبرًا غضوبًا لا يعفو ولا يتسامح ولا يتأنى إذا احتجت إلى مقابلته ذهبت إليه متخوفًا من بوادره، متحسبًا من شدته وشراسته.

إنَّ مثل هذا الفظ يتباعد عنه العقلاء، ولا يخالطه الفضلاء، ولا تستريح إلى مجالسته الخلطاء، وتراه دقيق الحجة والمؤاخذة، غليظ الجدل والمخاصمة، لا يندى له جبين، ولا تجود له كف.. مثل هذا هو الذي تنفض القلوب من حوله، وتشمئز النفس من مقابلته، وتضيق بك الدنيا إذا احتجت إليه، وتفضل أن تقابل الموت الأحمر ولا تقابله.

ولقد كان رسولنا ﷺ أعظم الناس لينًا وحلمًا ورفقًا وسماحة خلق، فما عرف عنه أنه أهان جليسًا أو تجهم في وجه مسيء، روى البخاري أن أعرابيًّا بال في المسجد، فقام الناس إليه فوقعوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**دعوه وأريقوا على بوله سجلاً من ماء** (أي: دلوًا) **فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين**»، وكان من بركات فعلة الأعرابي أن عرف الناس كيفية تطهير الأرض إذا لامسها نجس، وأن هذا يكون بإراقة دلو من الماء على المكان.

لقد عذر رسول الله ﷺ ذلك البدوي، فقد عرف أنه فعلها مضطرًا، وبمثل هذا ملأ حبه -عليه الصلاة والسلام- قلوب الناس، وشبيه بهذه الحادثة قصة الأعرابي الذي دخل الصلاة وهو حديث عهد بالإسلام، فأخذ يلتفت ويسأل جاره، والمسلمون من حوله ينظرون إليه نظرات غاضبة، وهو يتعجب: لماذا يكشرون في وجهه حتى إذا انتهى رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الأعرابي، يقول الأعرابي: فوالله ما نهرني ولا كهرني (معناها قهرني)، بل قال لي: إن هذه الصلاة لا تصلح لكلام الناس، إنما هي التسبيح والذكر.

وكان -عليه الصلاة والسلام- على المنبر يخطب الجمعة، فأقبل أعرابي من بعيد وصاح: يا محمد، رجل غريب جاء يسأل عن دينه، فعلَّمني ديني، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر، وأمر بكرسي، فجيء له بكرسي حديد، فجلس عليه، وعلَّم الأعرابي من أمور دينه ما شاء الله له، ثم عاد واستأنف الخطبة.

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو تحرم عليه النار، تحرمُ على كلِّ قريب هين لين سهل**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه في شيء قط (يعني أنه كان يعفو عمن يسيء إليه) إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى.

وفي الحديث المتفق عليه عن أنس ﷺ قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بردٌ نجراني غليظ الحاشية (يعني خشن من أطرافه)، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء.

وفي الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود ﷺ قال: كأني انظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء (يعني عليه شارة النبوة) ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه، ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

وكان -عليه الصلاة والسَّلام- ينهى عن الغضب؛ لأن الغضب يقسي القلب، ويشنج الجسم، ويزين للمرء أن يبطش، ففي الحديث الذي رواه البخاري أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «**لا تغضب**»، فردد الرجل السؤال مرارًا، وهو يقول له: «**لا تغضب**».

ولا غرو، فالغضب يخرج الحليم عن طوره، والقرآن الكريم نهى عن الغضب، فقال تعالى يمدح المتقين: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

إنَّ منظر الحسنة جميل ومنظر السيئة قبيح، والمؤمن يدفع القبيح بالحسن، ويدفع الإساءة البشعة بالإحسان الجميل، فيتألف القلوب وتحبه الأرواح، وقرأنا في السيرة أنه -عليه الصلاة والسلام- كان يمشي ومعه عمر، فاعترضه يهودي كان له عليه دين، فطالبه بالدين، وأغلظ له القول، قال له: إنكم يا بني عبد مناف قومٌ مطل، فغضب عمر ﷺ وهمَّ أن يبطش باليهودي، فقال له رسول الله ﷺ: «**كان غير هذا أولى بك: تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب**»، فلم يسع اليهودي، وهو ينظر إلى وجه رسول الله ﷺ مجملاً باللين والحلم إلا أن قال: أشهد أن هذا وجه نبي.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۞ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٥- ١٢٨].

فضل اللين

لعل من أجمل أخلاق المسلم ومن أحلى سجاياه ذلك الخلق الحبيب الذي امتدحه ربنا ﷻ في محكم آياته، ونسبه إلى صفوة أنبيائه ومخلوقاته، ووصفه بأنه يؤلف حول صاحبه القلوب، ويغرس محبته في شغاف الضمائر، يقول ربنا ﷻ في سورة «آل عمران» والخطاب وإن كان للرسول الكريم إلا أنه أيضًا لكل من يأنس به، ويحب دينه وسيرته: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾.

ما أجمل أن يكون المسلم رقيق الشمائل حلو السجايا دمث الأخلاق خفيف الروح

والظل رفيقًا في تناول الأمور.. إن حدَّثته أصغى كأنه تلميذك المهذب، وإنْ لمته اعتذر، كأنما أخطأ وما أخطأ، وكأنما عناه الشاعر الطائي، وهو يصف الصديق المؤدب:

من لي بإنسان إذا أغضبته ... وجهلت كان الحلم ردَّ جوابه
وإذا ظمئت إلى الحديث نهلت من ... أخلاقه وشربت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بسمعه ... وبقلبه ولعله أدرى به

من الناس من إذا خالطته حملك من أثقاله وأوزاره ما لا تحمله من الكابوس الخانق، تراه يدعي فهم كل شيء، وهو لا يكاد يفقه شيئًا، وتراه إلى ذلك معجبًا بمواهبه، مغرورًا بنفسه، لا يصغي إلى نصح ولا ينصت إلى بلاغة، ثم هو لا يقبل عذرًا، ولا يقبل عثرة، وإذا اختلفت معه في أمر سهل من أمور الحياة العادية جاء لك حتى تستسلم وتعتذر وتعترف أنه المصيب، وأن أفكاره هي المصيبة، ثم هو بعد ذلك عُتل جواظ لا يكاد يبتسم، وهو أبدًا مخالفٌ لآراء من حوله لا يكاد أحدهم يتكلم أو يقترح، حتى يقول له: كلا، بل أنت مخطئ.

- روي عن رسول الله ﷺ أنه قال من حديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**واطلبوا مع العلم السكينة والحلم، لينوا لمن تعلِّمون، ولمن تعلَّمون منه، ولا تكونوا جبابرة**».

- وقد وصف الله جل جلاله عبادًا يحبهم ويحبونه، فقال في سورة «المائدة»: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾.

- وفي الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبيان، فسلَّم عليهم، وفي صحيح البخاري قال أنس رضي الله عنه: «كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ، فتنطلق به حيث شاءت»، وكان -عليه الصلاة والسلام- يكون في بيته في مهنة أهله، أي: يخدم ويعاون ولا يستنكف عن خدمة نفسه ومساعدة أسرته.

- وروى مسلم عن صحابي بدوي اسمه تميم بن أسد أنه قال: «انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يخطب، فقلت: يا رسول الله، رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهى إليَّ، فأتى بكرسي فقعد عليه، وجعل يعلِّمني مما علَّمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها.

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف**

مستضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»، والعتل معناه الغليظ، والجواظ المختال في مشيته.

- وفي الحديث المتفق عليه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي في حلة تعجبه نفسه مرجل رأسه يختال في مشيته، إذا خسف الله به؛ فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأشج عبد القيس (وكان سيدًا من سادات بكر، واسمه المنذر بن عائذ، وسمِّي الأشج لجرح كان في وجهه)، قال له رسول الله ﷺ: «**إنَّ فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله رفيق يحبُّ الرفق في الأمر كله**».

- وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا: «**إنَّ الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

- ورأى شابٌّ في ساحة منى أحد الوعاظ يسبُّ الناس ويتهمهم بالفسوق عن أمر الله، ويوزع لقب كافر بدون دليل ولا حساب، فقال له: يا أخي، ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، والله لو كان وعظ رسول الله ﷺ مثل وعظك ما آمن به رجل واحد.

- والكلُّ يعرف الحديث الذي جاء في صحيح البخاري حين بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال لهم النبي ﷺ: «**دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من ماء** (أي: دلوًا)، **فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين**».

- وفي الحديث المتفق عليه الذي لو يحفظه كل داعية إلى الإسلام: «**يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**».

- وفي صحيح مسلم حديث شريف يبيِّن منزلة اللين عند الله، يقول رسول الله ﷺ: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**»، ولما تكلَّم أحد الأعراب في الصلاة عنَّفه الصحابة وهموا به، ثم أقبل عليه النبي ﷺ، يقول الأعرابي: فبأبي وأمي رسول الله ﷺ من معلم، فوالله ما كهرني ولا

نهرني، لكنه قال لي ما معناه: إنَّ هذه الصلاة ليست لشيء من كلام الناس، لكنها التسبيح والذكر.

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه.

- وروى الترمذي عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم بمن يحرم على الناس أو بمن تحرم عليه النار؟ تحرم على كلِّ قريب هين لين سهل**».

وبعد؛ فإن منهج الدعوة إلى الله كما رسم القرآن الكريم يقوم على اللين والرفق ورقة الشمائل والحلم والصفح الجميل، ويخلو من الفظاظة والغلظة؛ لأن الداعية الذكي المؤمن يعتبر نفسه طبيبًا، وينظر إلى من يهديهم إلى سبيل الحق وكأنهم مرضى، والمريض لا يؤخذ بالشدة، لكنه يؤخذ بالشفقة واختيار الدواء الشافي، ولرب داعية فظ فتن الناس، فكرَّههم في الدين، وهاج فيهم سورة المعاندين، فعاش ومات لم يهد الله به ولو رجلاً واحدًا، وعلى النقيض من ذلك، فلرب هادٍ مرشد رقيق القلب حميد الخلق لين الكلام هدى به مئات بل آلافًا من التائهين حين تألفهم بأخلاق أعذب من الزلال البارد على المهجة والعطشى، وأبهى من قطرات الطل في أكمام الرياحين.

اللهم اهدنا إلى أحسن الأخلاق، واجعلنا من عبادك الذين قلت فيهم: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۞ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۞ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾ [الفرقان: ٦٣- ٦٩].

***

من أحاديث الآداب

اللسان بين الكلام الطيب والكلام الخبيث

الكلام هو أسمى الفنون التي اختصَّ الله بها الإنسان، وفضَّله بها على سائر خلقه حتَّى على ملائكة الرحمن، بل ولقد أسجدهم لآدم حين علم الأسماء وأنبأ بها ملأ السماء، ومنذ ذلك الحين أصبح كلامُ الإنسان في مجال التكريم وقربة لله العليم الحكيم.

إنَّ الكلمة الطيبة كالشجرة السَّامقة العلاء، المتفرعة في عنان السماء، الضاربة بجذورها في أغوار الزكاء والنماء، تؤتي أكلها كلّ حين، ويبارك ثمارها ربُّ العالمين؛ لأنها تقع في الأسماع كما ينزل الطلّ في كئوس الزهر، وتنوّر البصائر كما يهتدي السَّاري بنور القمر، ويفوح منها عبير القدوة الصالحة، فتظل محمودة الأثر، ولرُبَّ كلمة ظلَّت لصاحبها ذخيرة في حياته، ثم بقيت له صدقة جارية وعلمًا نافعًا بعد وفاته، فكان الكلام كله حسنات زاكيات وباقيات صالحات.

من الناس من يكون كلامه زَيْنًا للمجالس، وأُنْسًا للمُجالِس، ترى فيه حكمة العارف الأريب، وبلاغة المبدع الأديب، فإذا رأى ميزانه يوم القيامة غمرته المسرَّات وتدفقت في مُحيَّاه البسمات، نعم إن من الناس من يعجبك في كل نجواه؛ لأنك لا تراه إلا آمرًا بمعروف، أو ناهيًا عن منكر، أو مصلحًا بين الناس، ثم هو بعدئذ إذا لم يجدْ مجالاً لجليل القول تحلَّى بجميل الصمت؛ فيثاب بكرم الله على الكلام الخَيِّر كما يثاب على الصمت المفكر النيِّر، تراه يجيد الإصغاء إلى الحديث كأنما هو تلميذٌ ظامئ إلى المعرفة، وتراه أغلب وقته صامتًا، فإذا تكلم بَذَّ القائلين:

ومن الناس من إذا جلس في مجلس انطلق يحدث الناس بكل ما يعلم، واحتكر الكلام وهو لا يفهم، فتراه يتصدى لكل جدال، ويتصدر لكلِّ سؤال، ويدعي صنوف المعرفة، فهو تارة حكيم، وطورًا سياسي، وأحيانًا مهرج، فإذا انفض المجلس نال لقب ثرثار، ووصف بأنه مهذار، وهوى سبعين خريفًا في النار، وذلك لما يقع في ثرثرته من لغو الحديث، وغيبة الخلق، وقبيح السخرية، وكل ذلك مكتوب ومحسوب ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨].

والحقُّ أن عواقب الصمت أسلم من عواقب الكلام؛ لأن الصمت لا يوقع في المآزق بينما ترى أن رُبَّ كلمةٍ أطاحت برأس، وقديمًا قيل: كلُّ مكثار مهذار، وقالوا: من كثر لغطه كثر غلطه. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود: «**لقد أُمرت أن أتجوز في القول** (أي: أقتصر وأوجز) **فإن الجواز في القول خير**». ولخَّص رسول الله ﷺ ذوق الكلام فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»، وفي مسند الربيع: «**رحم الله من سكت فسلم، أو قال فغنم**»، قال عبد الله بن المبارك:

واغتنم ركعتين زلفى إلى الله ... إذا كنت فارغًا مستريحًا
وإذا ما هممت بالمنطق الباطل ... فاجعل مكانه تسبيحًا
إن بعض السكوت خير من القول ... وإن كنت بالكلام فصيحًا

ومن كلام عمرو بن العاص ﷺ: زلة الرِّجل عظمٌ يُجبر، وزلة اللسان قد لا تغفر، وقال الشاعر:

يموت الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه ... وعثرته بالرجل تبرأ على مهل

وأقبح ما تكون الثرثرة إذا كانت إشاعات لا سند لها مما يحرج أحيانًا ويهدم المعنوية أحيانًا أخرى، وقد نهانا رسول الله ﷺ عن قيل وقال، وخصوصًا في أوقات الأزمات والحروب؛ لأن حرب الإشاعات أحيانًا تعتبر سلاحًا هائلاً، وكانت بعض الجيوش تسخر حرب الإشاعات للقضاء على الروح المعنوية، كما فعل الجنرال (فرنكو) حين أرسل في بعض معاركه خمسة طوابير من الجيش من أربعة للقتال، والطابور الخامس لحرب الأراجيف والإشاعات، ولقد حذَّرنا القرآن الكريم من حرب الإشاعات، وأمر برد الأمر إلى المسئولين إذا سرت في المجتمع أي إشاعة ضارة، يقول الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿**وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾.

على أن للقول مقامات يُعاب فيها الصمت؛ لأن الصمت فيها يكون جبنًا وخسة ولؤمًا. كما إذا عربد الباطل في مجلس ظالم أو مُدح الظلم عند حاكم غاشم، فهناك تكون كلمة الحق

جهادًا في سبيل الله، وشهادة مضحية في مرضاة الله.

والمؤمن يعرف شرف الكلام كما يعرف أدب الصمت، ولقد تكلم حسان ﷺ بأمر من رسول الله ﷺ فوقع قوله على كفار قريش وقع الصاعقة، وأثبت أن كَلْمَ اللسان أنكى من كَلْمِ السنان، وأن القول ينفذ ما لا تنفد الإبر، وكان سلفنا الصالحون - رحمهم الله- إذا جلسوا في مجالس الخلفاء والأمراء والوزراء نصحوا لهم وقالوا لهم في أنفسهم قولاً بليغًا. يبلغ بصدقه وروعته أعماقهم، فيكتب الله للعلماء أجر الهداة وللحكام أجر المهتدين، ويكون الكلام بركةً على المتكلم والسامع.

وإذا كنا حمدنا الصمت وأوردنا الأحاديث في فضله وتفضيله فإن من الكلام ما هو أعظم ثوابًا عند الله وأجل أثرًا من الصمت. يقول النبي ﷺ فيما رواه ابن ماجه: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يظن أنها تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوان إلى يوم القيامة حتى يلقاه» وفي الأثر: أفضل الصدقة صدقة اللسان (ويعني بها كلمة الإصلاح الطيبة) تدفع بها الكريهة وتحقن الدم. ولرب كلمة خير من عطاء المال، وذكر عند الأحنف الصمت والكلام وأيهما أفضل فقال الأحنف: الكلام أفضل؛ لأن الصمت لا يعدو صاحبه، أما الكلام فينفع به كل من سمعه، واللسان وإن أوقع صاحبه أحيانًا في الإحراج فهو أشرف أعضاء الجسد؛ لأن الله أنطقه بالتوحيد وألهجه بالذكر والشكر، يقول زهير:

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه في التكلم

وفي المثل: «المرء مخبوء تحت لسانه».

والحقُّ أن اللسان الفصيح الصادق البليغ تتمتع به الأسماع، وتقضى به الحوائج، وتزول به الضغائن، ويُعزَّى به المصاب، ويرد به الجواب، وتوصف به الغوامض، ويوعظ به الغافل.

وما أجمل أن يلتزم المرء كلمة الخير ليكون في رضًا دائم من الله، سُئل عمر بن عبد العزيز - رحمه الله- ماذا تقول في دم عثمان وكان يتوقع منه كخليفة أموي أن يخوض في الحديث، لكنه - رحمه الله- قال: تلك دماءٌ نجانا الله منها، فلله الحمد والمنة. وما أجمل ما قال القائل: أزين الجمال للرجل حلاوة لسانه، وروعة بيانه، وأجمل جمال المرأة حياؤها الجميل، ووفاؤها للحليل.

على أن طول الكلام ربما يكون عيًّا إذا كان ترددًا غير مثمر، جلس أعرابي يستمع إلى خطبة جمعة فأطال الخطيب حتى نعس الأعرابي ونام، فلما أوقظ قال: نحن في البادية نعد طول الخطبة عِيًّا، ونرى البلاغة في قلة الكلام وبلوغ المرام.

من أحاديث الآداب

الكـــــــلام الطيب

من آداب المسلم أن كلامه لا يكون إلا طيبًا، ومن ثم ترى بين فمه وبين الله طريقًا عبقًا يفوح شذاه بعطر الإيمان. وفي هذا يقول الله ﷻ في سورة «فاطر»: ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**﴾ [فاطر:١٠].

إنَّ فَمَ المؤمن وعاءٌ وضيء طهور ينضح خيرًا ومعروفًا وإحسانًا وإصلاحًا كأنك منه في روضة أريضة أو خميلة مزهرة لا تريك إلا المنظر الجميل ولا تنفحك إلا الشذا العطر، ولا غرو فالمؤمن مأمور من ربِّه وقرآنه ودينه ورسوله أن يتجنَّب السوء من القول، وألا يلجأ إلى السِّباب المقذع والفحش المرذول، يقول ربنا ﷻ في سورة «النساء»: ﴿**لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ۞ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا**﴾ [النساء: ١٤٨، ١٤٩].

وللأشياخ – رحمهم الله– كلام حُلْو في بلاغة هاتين الآيتين، وما تشيعانه من جوٍّ مؤنس حبيب حافل بالعفو من العبد، وما يترتب عليه من عفو الله القادر القاهر.

إنَّ المؤمن مأمور أن يكف عن كل أنواع البذاء حتى إنه لا يجوز له أن يسبَّ الكفَّار ولا أصنامهم؛ لأن السباب لا يأتي بخير، وهو سلاح الضعيف، وقديمًا جاء في أمثال العرب: (أوسعتهم سبًّا وراحوا بالإبل) على لسان رجل ضعيف نهب القوم إبله وهو يسبهم، فلما لامه أهله على قلة حيلته قال ذلك المثل، وفي حقبة من تاريخ العرب الحديث شغلت بعض وسائل الإعلام طاقتها في السباب فاستيقظ عدونا في أثناء تلك الحملات المعيبة وانتهز الفرصة فراح بالإبل، وقتل أصحابها واحتل أوطانها.

لقد نهانا الله ﷻ أن نسبَّ أصنام المشركين ومعبوداتهم؛ لأنهم عندئذٍ سيسبون معبودَنا ﷻ؛ إذ هم يرون في آلهتهم من الجمال والزينة مثل ما يرى المؤمن في ربِّه، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «الأنعام»: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾ [الأنعام: ١٠٨].

وأجبن ما يكون السباب وسوء القول والغيبة حين يكون في غياب المسبوب؛ لأنه عندئذٍ يكون غيبة ثم إنه لا فائدة منه أما الكلام في الوجه فهو الذي يفيد حتى ولو كان مُرًّا. جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**»، ولم يكتف الإسلام أن ينهانا عن سوء القول بل لقد نهانا عن مجالسة أهل البذاء والافتراء والغيبة والخوض في أعراض الناس.

وقد يقول قائل: إنني أخالطهم لكنني لا أشترك معهم في بذاءة أو قول سيء ونسي أن مجرد الجلوس معهم إثم كبير حتى ولو لم يشارك المرء في سوء أقوالهم، وذلك لأن المرء على دين خليله، والمرء مع من أحب، وجليس السوء كنافخ الكير يؤذي وقد يحرق، يقول ربنا في محكم آياته يصف المؤمنين: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا**﴾، ويقول في سورة «المؤمنون»: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾، وفي سورة «القصص»: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾، وفي سورة «الأنعام»: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾، وفي سورة «النساء»: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾.

ولهذا فالمؤمن لا يكتفي أن يتجنَّب سوء القول لكنه يعتزل أهله، ولا يرضى أن توبقه سموم مجالسهم الموبوءة، وقد أفاد الأشياخ -رحمهم الله- أن هنالك حالات ومواطن يجوز فيها للمرء أن يصدر عنه القول السيئ من غيبة ووصف صادق لأهل الفسوق دون أن يكون عليه إثم إن شاء الله، فقد أباحوا من الغيبة الأمور الآتية:

أولاً: يجوز للمظلوم أن يغتاب ظالمه أثناء شكواه، فيذكر ظلمه وابتزازه واغتصابه

وتحايله في سبيل قلب الباطل حقًا، يقول الله تعالى في سورة «النساء»: ﴿**لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ**﴾، وفي الحديث المتفق عليه أن رجلاً (يبدو أنه كان من أهل الظلم) استأذن على رسول الله ﷺ فقال: «**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة**» يعني أنه من بين عشيرته رديء ظالم.

لقد اغتابه رسول الله ﷺ لظلمه وسوء أخلاقه مع الناس. ولعل في هذا تحذيرًا منه.

ثانيًا: إذا استشارك إنسان يطلب نصيحتك بخصوص رجل يريد مشاركته أو امرأة يريد زواجها وكنت تعلم أمورًا معيبة فيها فوضحها للمستشير ولو ذكرت سوءًا واقتضى الأمر أن تذكر الشريك والمرأة بما يكرهان، وفي هذه الحال لا تكون اغتبتهما وإنما نصحت أخاك، والمستشار مؤتمن.

ثالثًا: في معرض العلم والتعليم ودروس التاريخ للإرشاد والنصح، كأن تقول عن محدث: إنه كان مدلسًا، أو تصف حاكمًا أنه كان جبانًا أو ظالمًا، ومن النصح مثلاً أن ترى جماعة من الأشرار يتآمرون لسرقة بيت فتخبر عنهم الحاكم وتصف مساوئهم، أو أن ترى بعض المزعجين لشوارع المسلمين يسوقوا سياراتهم فتكتب أرقامها وتصفهم للمسئولين، ولا تكون عندئذ مغتابًا ولكن ناصحًا، وفي هذا الأمر يُلتزم السر والتكتم؛ لأن العبرة بالإصلاح لا بالفضيحة.

رابعًا: في الاستفتاء والشهادة، فعلى المؤمن أن يكون دقيقًا يورد الحقائق في صدق وموضوعية ليكون الحكم مطابقًا للوقائع، وذلك لأن المجاملة في الحق قد تضيع الحقوق وتروج الظلم.

خامسًا: غيبة المجاهر الذي لا يستحي لينشر ذكره بالسوء فيخزى من نفسه ولعله يتعظ.

سادسًا: إذا كان لقب إنسان أو اسمه شائعًا ولا يستحي صاحبه منه فلا بأس أن تذكره به كالأعمش والأصم والأعرج والخدَّام والأحول. والعبرة في كل ذلك بالمقاصد، والأعمال بالنيات.

من أحاديث الآداب

عفُّ اللســـــان

من الناس من عوَّد لسانه على الصخب، ومنطقه على الشتائم، فهو يصخبُ بسبب وبغير سبب، وهو يشتم جادًّا ومازحًا، وقد تسمعه في الأسواق يرفع عقيرته صائحًا، وقد تراه شاتمًا حتى وهو يسلم على صديقه مع أن ربنا ﷻ نفَّر من هذه المثالب فقرن بين عادة الصخب في الناس وعادة النهيق في الحمير قال الله ﷻ على لسان لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿**وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾.

المؤمن يعلم أن اللسان من أجلِّ نعم الله، فتراه يحرص على تلك النعمة الجلية، فلا يصدر في كلامه إلا عن الكلم الطيب الذي يصعد إلى الله، والمؤمن يجعل من لسانه منبعًا طهورًا لا يصدر في نجواه إلا عن أمر بمعروف أو صدقة أو إصلاح أو ذكر لله أو علم نافع أو حكمة مفيدة، فإذا فعل ذلك استبشر بوعد الله -تبارك وتعالى- الذي وعد أصحاب الألسنة النظيفة الوضاءة؛ إذ يقول في سورة «النساء»: ﴿**لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

إن ربنا ﷻ أمرنا بعفة الألسنة حتى في جدال أهل الكتاب، ونهانا عن اللغو والسباب حتى عن سباب الكفار، وحتى عن سباب الأصنام؛ لأن الكافر يكون معجبًا بكفره، فإذا سببت صنمه سبَّ الله ﷻ. وفي هذا يقول الله تعالى في سورة «الأنعام»: ﴿**وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ**﴾، ويخاطب ربنا تبارك وتعالى دعاة الخير فيوصيهم برقة الكلام واستعمال الحكمة والموعظة الحسنة ويقول في سورة العنكبوت: ﴿**وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾.

ولقد كان رسولنا محمد ﷺ آية في حلاوة اللسان وعذوبة المنطق. روى الترمذي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**ليس المؤمن بطعَّان ولا لعَّان ولا فاحش ولا بذيء**»، وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّعَّانِينَ لاَ يَكُونُونَ شُهَدَاءَ وَلاَ شُفَعَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»، وفي سنن أبي داود

والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضب الله ولا بالنار**»، ومعنى الحديث: لا يقل أحدكم لأخيه: لعنة الله أو غضب الله عليه أو أدخله الله جهنم.

ولما اشتد أذى المشركين لرسول الله ﷺ عام الحزن قال له بعض أصحابه: ادع الله على المشركين والعنهم فقال عليه الصلاة والسلام كما جاء في صحيح مسلم: «**إني إنما بعثت رحمة، ولم أبعث لعانًا**». وفي رواية البخاري عن أنس أنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ سبابًا ولا فاحشًا كان يقول لأحدنا عند المعتبة: «ما تربت يمينه، أو تربت جبينه» وهي دعوة قد تقال في العتاب، وقد تقال ولا يقصد بها وقوع ضرر كما قال عليه الصلاة والسلام في حديث اختيار الزوجة: «**فاظفر بذات الدين تربت يداك**». وفي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام نفر من السباب فقال: «**سباب المؤمن فسوق. وقتاله كفر**».

وقرأنا في كتب السيرة أن أحد المسلمين لعن أصحاب القليب (وهم قتلى المشركين يوم بدر) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الأموات فتؤذوا الأحياء**». وفي رواية: «**دعوا السباب فإنه يؤذي الأحياء ولا يصل إلى الأموات**».

والبذاء لا يأتي بخير، وأحيانًا يحلو لبعض الناس أن يرموا بعض المسلمين بالفسوق أو الكفر دون أن يكون لديهم برهان على ذلك، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري: «**لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلًا بِالْفُسُوقِ وَلَا يَرْمِيهِ بِالْكُفْرِ إِلَّا ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كَذَلِكَ**»، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلاً وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا**».

ولم يكتف الإسلام أن نهانا عن سباب الناس؛ فقد نهانا أن نشغل ألسنتنا بأي سباب، ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**»، وفي رواية يقول: «**قَالَ اللهُ ﷻ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَقُولُ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: يَا خَيْبَةَ الدَّهْرِ؛ فَإِنِّي أَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ فَإِذَا شِئْتُ قَبَضْتُهُمَا**».

والحق أن هذا يحصل كثيرًا فقد تسمع رجلاً يقول لآخر: تبًا لهذا الزمن أو لهذه الأيام التي جعلت لك مالاً فصرت تتكلم، إن الذي يقول هذا قد سبَّ الله ﷻ وهو لا يدري؛ لأن الأيام ليست هي التي جعلت له مالاً، وإنما الله -تعالى- هو الذي فعل ذلك.

وقد نهانا النبي ﷺ عن سبِّ الريح، ففي سنن أبي داود والترمذي أن رجلاً نازعته الريح رداءه فلعنها فقال رسول الله ﷺ: «**لا تعلنها فإنها مأمورة مسخرة، وإن من لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت عليه**». وفي رواية النسائي: «**إن هذه الريح من روح الله، تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبوها واسألوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها**».

ونهانا عليه الصلاة والسلام عن سبِّ المسلم إذا مات، ففي سنن أبي داود والترمذي يقول النبي ﷺ: «**اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم**» وفي رواية للبخاري: «**لا تسبوا الأموات؛ فإنهم أفضوا إلى ما قدموا**».

وقد أنكر رسول الله ﷺ على امرأة من الأنصار غضبت من ناقتها فلعنتها فقال: «**خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة**». وجاء في الأحاديث الشريفة أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن سب الديك؛ لأنه يوقظ للصلاة.

وعلى الجملة؛ فالمؤمن يتجنب كل أنواع السباب والبذاء إلا أن يكون المسبوب مجاهرًا بفسقه أو ظالمًا واضح الظلم أو مبتدعًا، فإنه عندئذٍ يستحق اللعن كما لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهده وكاتبه، وكما لعن الراشي والمرتشي والرائش، ولعن بائع الخمر وعاصرها وشاربها.

نسأل الله أن يرزقنا الاقتداء برسوله ﷺ واتباع أوامر دينه.

مديح من لا يستحق

لعل من أشد المواقف مقتًا وخنوعًا وإذلالاً للكرامة الإنسانية أن ترى شاعرًا أو أديبًا أو متكلمًا أو صحفيًّا يكيل المدائح بلا حساب من أجل هدف رخيص أو عرض دنيء أو دراهم معدودة، ويزداد الموقف سوءًا حين يكون الممدوح من أهل الفساد، والسمعة الرديئة،

والفسوق المسقط للمروءة.

إنَّ المديح الرخيص إذا دلَّ على شيءٍ فإنما يدل على سقوط المروءة، وهوان النفس لدى المادح، كما يدل على لؤم الطبع وسوء التربية لدى الممدوح، يقول الله -تعالى- في سورة «النجم»: ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى**﴾، وألام يكون المرء إذا رأيته يمدح في المجالس نفسه وهو يعلم أن نفسه طافحة بالعيوب مدنسة بالذنوب، يقول ربنا ﷻ في سورة النساء: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا**﴾.

على أن هنالك صنفًا من الناس يحبون المديح بما لم يفعلوا، تراه أبخل الناس وهو يحب أن ينسب إليه كرم حاتم، وتراه أنجس الناس وهو يريد أن يمدح بعفة يوسف، وتراه مثلاً خسيسًا في الجشع والرشوة والدَّنس وهو يعشق أن يوصف بكل الفضائل والشمائل والمثل العليا. مثل هذا هو الذي ذكره الله ﷻ في سورة «آل عمران»؛ إذ يقول: ﴿**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وأي ظلم أشد من تصرف مخلوق حقير يفعل كبائر الإثم ويجرُّ على قومه ويلات الشؤم ويغوص في حمآت الهزائم، ثم هو نعرض أن يشاد بصلاحه وتعدد إنجازاته وجلائل أعماله وتنسب له انتصارات وهمية ومآثر مزعومة، وهو لو حاسب نفسه لوجد حياته كلها مستنقعًا آسنًا يفوح بوباء الحرام ونتن الفاحشة وزخم السحت وعار الهزائم.

الإسلام الحنيف يكره التملق والمديح الكاذب، بل إن الإسلام ليأمرك ألا تمدح أخاك بما فيه من صفات الصلاح خشية أن يغتر ويستكثر عمله؛ فيشغله الغرور عن المداومة والاستزادة، وقد علل القرطبي - رحمه الله- في تفسيره نهي القرآن عن التمدُّح بقوله ما معناه: «نهانا الله عن التمادُّح خشية أن يدفعنا ذلك إلى الإعجاب والكبر، ونظن أننا بتلك المنزلة فنضيع العمل ونترك الازدياد من الفضل».

- وفي الحديث المتفق عليه من حديث حذيفة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ، فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا**

أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ».

- وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل ويطريه في المدح فقال عليه الصلاة والسلام: «**ويحك أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيرًا فقال: «**ويحك قطعت عنق صاحبك**». وكررها ﷺ مرارًا ثم قال: «**إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، إن كان يرى أنه كذلك. وحسيبه الله ولا يزكي على الله أحدًا**».

- وروى مسلم - رحمه الله- في صحيحه أن رجلاً جعل يمدح عثمان بن عفان فعمد المقداد فجثا على ركبته فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المداحين؛ فاحثوا في وجوههم التراب**».

- وفي سنن ابن ماجه أن معاوية ﷺ كان كثيرًا ما يقول في خطبه: إياكم والتمادح فإنه الذبح.

- وكان ابن مسعود ﷺ يقول في المتملقين الذين يأملون أن يقضوا حوائجهم بالمديح والتملق: إن الرجل ليغدو بدينه ثم يرجع وما معه منه شيء. يلقى الرجل لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا فيقول له مثنيًا: إنك لكيت وكيت (يعني أنه يمدحه ويتملقه) فلعله أن يرجع ولم يقض حاجة. ولكنه أسخط الله عليه ثم يتلو قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾.

- وفي صحيح مسلم - رحمه الله- أن أحد الصحابة سمى ابنته (برَّة) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم على الله أعلم بأهل البر منكم. سموها زينب**». وإنما نهى عن اسم برة لما فيه من مدح.

- وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن المراثي، وهي قصائد يمدح بها الموتى.

لقد جاء على أمتنا حينٌ من الزمن كانت أحوالها فيها من المضحكات المبكيات حين تولى بعض شعوبها نفر من أهل الاستبداد والظلم، خوفوا الناس وسخروهم للمديح والإطراء فما يكاد مستبد يقفز على السُّدة حتى تهيج من حوله المدائح والأناشيد والإنجازات الخيالية

المزعومة، ولما استخف أولئك المستبدون شعوبهم كثرت الانقلابات، فكنت ترى في السنة عدة حكام ينقلب بعضهم على بعض، وبينا ترى في يومك مدائح في فلان إذا بك في غدك ترى له فضائح يندى لها الجبين، ويستحي منها الزمن.

إن الإسلام لا يمنع أن تقول للمحسن أحسنت، إذا أردت بذلك أن تشجعه وتستزيده، ولكنه يمنع أن يُتملَّق الظالم ويمدح الفاسق، وقد فضل الله أمتنا على سائر الأمم لثلاث خصائص ألا وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله، فقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾.

إن سلفنا الصالح ما كانوا أبدًا مداحين لكنهم كانوا على كل أحوالهم متناصحين، ولا عجب فقد لخص لهم نبيهم ﷺ دينهم بقوله: «**الدين النصيحة**»، ولهذا فقد كانت علاقة المحكوم بالحاكم هي علاقة المحب النصيح الذي يسدد الخطأ، ويرشد إلى الصواب، ويتقرب إلى الله بالسمع والطاعة والانضباط والنظام، فنشأ من السلف جيل لا يدين إلا لله، ولا يعتز إلا بالإيمان، ولا يحني جبهته إلا في صلاته، ولا يتملق مخلوقًا على حساب دينه، أولئك هم الذين أعزهم الله بإيمانهم، فلم يلتمسوا العزة بغيره، وأيقنوا أن الرزق في السماء، وأن الأجل في الكتاب، فلم يرخصوا أنفسهم بالأطماع لكنهم شروها لله بالجنة؛ فصدقهم وعده، ومن أوفى بعهده من الله.

من أحاديث الآداب

أثر العبادات في أعمال وأخلاق المسلم

من آداب المؤمن أن تظهر آثار عبادته في أعماله وأخلاقه، فإذا صلّى ظهرت في سلوكه أخلاق المصلين، وإذا صام تألقت في أعماله ومعاملاته شمائل الصائمين، وإذا آتى زكاته زكت نفسه بمناقب المؤثرين المحتسبين، وإذا حج عاد من حجه بفضائل المقبولين، عندئذٍ تكون عبادته كشجرة طيبة مثمرة تؤتي أكلها كلَّ حين بإذن ربها، أما حين تكون عبادته في وادٍ، وأخلاقه في وادٍ، فتلك هي العبادة التي كشجرة السرو بلا رواء ولا ثمر.

المؤمن يعلم أن العبادة إنما فرضها الله -تعالى- على عباده لتحقق ثلاثة أهداف عظيمة سامية:

أولها: تحقيق توحيد الله الذي خلقنا من أجل أن نعبده ونوحده، فقال ﷻ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

ومن هنا؛ فإن عبادة الله وتوحيده وإخلاص النية إليه دلائل على أن الإنسان عرف رسالة وجوده وحكمة خلقه فأدى الرسالة وحقق الحكمة وحمل أمانة الله بجدارة، تلك الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، أما الذي يقعد عن العبادة فذلك الذي سفه إنسانيته وخان أمانته وحقر نفسه ورسالته.

أما الهدف الثاني من عبادة الله: فهو توحيد الكلمة، وجمع الشمل، وإشراق المحبة في مجتمع المسلمين حين يجتمعون حول مقاصد الخير في صلاتهم وصومهم وزكاتهم وحجهم؛ فتشيع بينهم روح الإخاء، وتجمعهم في الله أعلام الصفاء، وإذا هم صف واحدٌ مرصوص قوي يرد بالعزائم كلَّ عادية، ويهزم بالوحدة المباركة كل غازية، وبهذا تكون كلمة التوحيد مقدِّمة هادية لوحدة الكلمة.

وأما الهدف الثالث للعبادة بعد تحقيق كلمة التوحيد وتحقيق وحدة الكلمة: فهو تحقيق مكارم الأخلاق؛ لأن من عبد الله أطاعه بأتباع أوامره الحكيمة الهادية، واجتناب نواهيه الجليلة المنجبة، وأوامر الله لا تكون إلا بالهدى والخير والمعروف، ونواهيه لا تكون إلا عن منكر مُهْلِك مخوف، وبهذا تحقق العبادة للمؤمن صنائع الخير، وتبعد به عن نوازع الشر، وهذان هما أساس الأخلاق.

وإذن؛ فالمؤمن يتفقد عبادته هل حققت له خلوص التوحيد فوثَّقت حبه لله ورسوله؟ وهل بعثت في قلبه حبَّ المؤمنين فوحدت تحت راية الإيمان قلبه مع قلوبهم، وقوته مع قوتهم، وهواه مع هواهم؟ وأخيرًا هل رفعت العبادة مستوى المؤمن في معاملاته وأخلاقه فالتزم الحق والخير ومخافة الله، ودفع الإساءة بالتي هي أحسن وعاش في المجتمع الإسلامي الوضيء كما تعيش الأزاهير في الروضة الندية رفافة في الشذا العطر والمنظر الجميل.

المؤمن أبدًا يتساءل: هل حققت له العبادة أهدافها العظيمة فخلص لله توحيده وصفا للمؤمنين وداده وتألقت بالجمال أخلاقه، فإذا رآها كذلك حمد الله واستزاد وإن رأى غير ذلك سلك طريق الاجتهاد.

إنَّ أخلاق المصلين موصوفة في كتاب الله ﷻ فالمصلي لا يكون هلوعًا شديد الأسى في الشدائد، شرس البخل في الرخاء ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۞ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۞ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ**﴾، ثم تمضي آيات سورة «المعارج» في وصف أخلاق المصلي بأنه كريم يشارك السائل والمحروم في ماله، وأنه أبدًا مشفق من عذاب ربه مصدق بميعاده ولقائه حافظ عن الفاحشة فرجه راعٍ لأمانته وعهده قائم بالشهادة على أصدق أحوالها، ثم هو محافظ على صلاته لا يسهو عنها ولا يرائي بها، وتعلمه صلاته الكرم فلا يمنع ما عونه ولا يحجب عن الناس خيره.. هذه هي الصلاة في المفهوم القرآني أخلاقٌ فاضلة تنهي المؤمن عن الفحشاء والمنكر، وإذا سمع المؤمن نداءها ودعوتها التامة سعى إلى ذكر الله موقنًا أن الله أكبر وأنه لا إله إلا هو وأن الفلاح في طاعته.

والصوم في مفهوم القرآن أخلاق شرعها الله للناس لعلهم يتقون، ونهى رسول الله ﷺ الصائم عن أي مشاتمة أو رفث أو سباب، ومن ثم فالصوم أخلاق فاضلة، ووحدة شاملة ماثلة، وهو فوق ذلك عبادة خالية من الرياء، مخلصةٌ لربِّ الأرض والسماء، فلا غرو أن يكون جزاء الصائم المحتسب يؤخذ من يد الله مباشرة، ومن كرمه الذي لا ينتهي.

والزكاة في القرآن الكريم صدقة مطهرة، وفضيلة للنفوس مزكية ومجلبة لصلاة الله الذي يصلي على المؤمنين وملائكته، والحج أشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال بل إيمان وتوحيد وأخلاق وأعمال، والعبادة إذا لم تقترن بفضائل النفس ولم تبتعد عن شرور المعاصي تئول إلى الحبوط، فرُبَّ صلاةٍ تلف في الحساب ويرمى بها في وجه مصليها، ورُبَّ صائم لا ينال من صومه إلا الجوع والعطش، ورُبَّ متصدِّق أصاب صدقته إعصار من الرّياء والسمعة فاحترقت، ورُبَّ حاج حجّت إبلُه ولم يحجّ، ذهب إلى الحج وهو قَدوم فرجع وهو منشار.

نسأل الله لنا وللإخوة أن يخلص عبادتنا لوجهه، ويحقق بها لنا صفاء التوحيد وجمال المحبة ومكارم الأخلاق.

من أحاديث الآداب

بيان الأهداف النبيلة التي ترمي إليها العبادات

هذه الحلقة سوف نخصصها -إنْ شاء الله- لبيان الأهداف النبيلة السَّامية التي ترمي إليها العبادات، والتي هي لباب العبادة وثمرتها، والتي بدونها تكون العبادة قشورًا بلا لباب، ولعل الإخوة القراء يتدبرون هذه الأهداف الجليلة، ويرون هل حققت عبادتهم شيئًا منها؟ فإن كان ذاك فليحمدوا الله على ما هداهم، وإن لم يكن ذلك فليجتهدوا في مدارج السالكين حتى يحققوا بإذن الله أغلى أمنيات الصالحين.

إن أهم العبادات التي شرعها الله ﷻ لعباده هي أركان الإسلام الخمسة الصلاة والصوم والزكاة والحج، وعماد ذلك كله شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. هذه العبادات العظمة إنما شرعها ربنا ﷻ لتحقق في المجتمع الإسلامي ثلاثة أهداف عظيمة: كلمة التوحيد، ووحدة الكلمة، ومكارم الأخلاق. وإن أحوج ما يحتاجه المسلمون في هذه الأيام هو التوحيد الصافي الذي به تنبذ الأمة كل طاغوت، وتخلع وتترك كل فاجر وتدوس تحت أقدامها كل عبودية إلا لله وحده.

إن الأمة الإسلامية حين تحقق التوحيد ينتزع من قلوبها الخوف وحب الدنيا وكراهية الموت، وإذ ذاك يكون لها في القتال سلوك غير الذي وسمها بالوَهن حين أوهنها حب الدنيا وكراهية الموت، والأمة الإسلامية حين تحقق وحدة الكلمة تبرز في القتال صفًّا مرصوصًا لا يترك في وجه العدو ثغرة ضعف يخترقها فينفذ منها إلى مقاتل الأمة ونقاط ضعفها، والأمة الإسلامية حين تحقق بالعبادة مكارم الأخلاق تبني بالفضائل مجتمعًا متحابًّا آمنًا خاليًا من الرذيلة والجريمة ومن الرياء والكذب والنفاق.

والمتأمل في العبادات الخمس الرئيسية يرى أنها هي التي حققت لسلفنا ﷺ تلك الأهداف الشريفة الماجدة، فكان أن نصرهم الله ودحر أعداءهم وأمد جيوشهم بجيش من الرعب يسبقهم مسيرة شهر.

الصلاة كما وصفها ربنا ﷻ درس أخلاقي ينتهي به المرء عن الفحشاء والمنكر ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ويقول ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، وهي في الوقت اجتماع قلوب واجتماع أجسام تنظم المؤمنين في صفوف متراصة مستقيمة لا ترى فيها ثغرة يستطيع الشيطان أن ينفذ فيها، وفي هذا تقريب للقلوب وتوحيد للكلمة وتحقيق للمحبة التي بها يجتمع الشمل ويسود الصفاء. فما أجمل الصلاة توحيدًا لله ووحدة للصف ودرسًا في الأخلاق.

والزكاة درس في الإحسان تطهر النفس من الشح المطاع، والبخل المقيت، واللؤم الدنيء، وتلقى على النفس الإنسانية درسًا يلقنها رحمة العبد للغير وصنائع المعروف والخير، يقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

هذا من حيث الأخلاق أما من حيث تحقيق وحدة الكلمة فالزكاة -لا شكَّ- توحد القلوب وتحبب الفقراء في الأغنياء وتمحو الهوة السحيقة التي تفصل عادة بينهم فتملؤها بدلاً من الحقد حبًّا وولاءٍ تتحقق بهما وحدة الكلمة، ثم إن الزكاة قبل هذا استجابة لأمر الله ينفقها العبد خالصة لوجه الله الكريم مخلصة من الرياء والمن والأذى وطلب السمعة، وهي بهذا تحقيق لتوحيد الله الخالص الذي به تصرف العبادة له وحده لا شريك له.

والصوم بعدئذٍ درس في التوحيد والوحدة والأخلاق، أما أنه درس في التوحيد؛ فلأن العبد يترك طعامه وشرابه وشهوته استجابة لأمر الله، وطلبًا لمرضاته، وسدًّا لمنافذ الشهوات التي يقتحم الشيطان منها قلب العبد بالمعاصي، والتي بلا شك تنال من صفاء التوحيد، وأما أن الصوم درس في وحدة الكلمة فلأنه ينظم المؤمنين في سلك نظام واحد بحيث يجوعون معًا ويأكلون معًا، فيشعر الموسرون بما يعانيه المحرومون من ألم الحرمان، وحسبك بهذا تحقيقًا لوحدة الكلمة، وإشاعة لتضامن المحبة، ألا ما أجمل الصوم توحيدًا ووحدة ومكارم أخلاق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣].

وأما الحج وهو خامس العبادات، وخامس أركان الإسلام؛ فهو أيضًا موسم أخلاق،

وأشهر معلومات لا رفث فيها ولا فسوق ولا جدال بل عبادة وذكر ودعاء وشكر لله على ما رزق بني الإنسان من بهيمة الأنعام.

نعم في الحج يأتي المسلمون من كل فج عميق ليشهدوا منافع تحقق لهم خيري الدنيا والآخرة، وتهذب أثناء ذلك قلوبهم وألسنتهم، ثم هي تجمع المسلمين في المناسك في بملابس موحدة تذكرهم بأكفان الموتى. وتشعرهم بأن الناس كلهم لآدم إخوة في الإنسانية لا فضل فيهم لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى، وأي مظهر من مظاهر الوحدة أسمى من مظهر الحجاج، وقد أسلموا لله قلوبهم، وبرزوا لله خاشعين، معظمين شعائر الله وحرماته، مجتنبين الرجس والأوثان وقول الزور، وأي إلحاد أو ميل نحو الظلم. إن هذا ولا شك مما يكمل توحيدهم ويخلص مقاصدهم إذ يقول قائلهم: ﴿**إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبعد؛ فيا أخي القارئ الكريم!! تفقد منذ الساعة عبادتك من ذكر وصلاة وصوم وزكاة وحج. فإذا رأيتها قد أفادتك صفاءً وخلوصًا في توحيدك لله، وإذا رأيتها وقد ملأت قلبك حبًّا للمسلمين وشوقًا إلى وحدة شملهم واجتماعهم، وإذا رأيتها وقد سمت بأخلاقك وملأت قلبك بكل معاني الفضائل -فاعلم أنها إن شاء الله قد توجت بالقبول، وحققت لنفسك تقواها، إنما يتقبل الله من المتقين.

***

من أحاديث الآداب

فضل القلب المؤمن

إن في الجسد عضوين صغيرين هما أعظم وأشرف ما في الجسد أولها وأشرفها هو القلب، والثاني هو اللسان، وقديمًا قال الحكماء: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وإذا رزق العبد قلبًا حافظًا طهورًا ولسانًا ذاكرًا شكورًا فذلك هو الذي قد حظي بسعادة الدارين وأفضل الحسنيين، وما أجمل قوله -جلَّ وعلا- في سورة «البقرة»: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ والحكمة منبعها القلب المؤمن المستنير، ومصبها اللسان الطاهر المستقيم.

لقد ورد ذكر القلب في القرآن الكريم مفردًا ومثنى ومجموعًا في أكثر من مائة وعشرين موضعًا، وكان رسول الله ﷺ يُكثر أن يقول: «**اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، و«**يا مصرف القلوب اصرف قلبي إلى طاعتك**» والعرب تستعمل كلمة القلب وتعني بها موضع التفكر والتفكير والعواطف والتقوى، فبالقلب يعرف المسلم ربه، ويخشع ويبكي ذنبه، وبه يفكر في آيات الله ومخلوقاته ويحيط بإعجاز كلماته.

- جاء في نهاية الحديث المتفق عليه عن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

- وقد جعل رسول الله ﷺ القلب وإحساسه ميزانًا للعمل الصالح فقال: «**البرُّ** (أي: الحلال والحسنات) **ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**». ومن هذا يتضح أن القلب المستنير هو المعيار الذي يميز به عن الحسنات والسيئات.

- وفي الحديث الصحيح: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار**». قيل: وما

بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**». ومعنى ذلك أن العبرة في الأعمال بنية القلب.

- وفي سنن ابن ماجه: «**إِنَّ مِنْ قَلْبِ ابْنِ آدَمَ بِكُلِّ وَادٍ شُعْبَةً فَمَنِ اتَّبَعَ قَلْبُهُ الشُّعَبَ كُلَّهَا لَمْ يُبَالِ اللهُ بِأَيِّ وَادٍ أَهْلَكَهُ وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَى اللهِ كَفَاهُ التَّشَعُّبَ**».

- وروى الحاكم والبيهقي وابن أبي الدنيا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قلب ابن آدم مثل العصفور يتقلب في اليوم سبع مرات**».

- وفي صحيح مسلم ومسند أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء**».

- وفي مسند الإمام أحمد: «**القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله ﷻ فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله ﷻ لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**».

- وفي صحيح مسلم وسنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب الشيخ شابٌّ على حب اثنتين: حب العيش وحب المال**»، وفي رواية لأحمد والترمذي: «**طول الحياة وكثرة المال**».

أولاً: إن أعظم عمل يقرِّب إلى الله وتُرجى به رحمته هو أن يأتي العبد ربه بقلب سليم، إذ في الآخرة لا ينفع المرء ماله وبنوه، ويتخلى عنه أخوه وأبوه، وإذ ذاك يكون أعظم ذخره قلبًا سليمًا من الشرك والرياء، ومن ران المعصية، وسوء الطوية.

ثانيًا: ويبدو من اشتقاق القلب أنه يتقلب بين الحسنات والسيئات، وبين الشك واليقين، وبين الأمل واليأس، وعلى العبد ألا يأمن مكر الله الذي يحول بين المرء وقلبه، وإليه يحشر العباد على نياتهم، وأن يسأل ربه مقلب القلوب الثبات على الحق والخير والهدى ودين الحق، وأن يصرف قلبه إلى البر والطاعة والإحسان والحسنات.

ثالثًا: القلب بفطرته الإلهية قابل للهدى بما أودع الله فيه من نقاء الفطرة، والمولود يولد على الفطرة ودين الإسلام هو دين الفطرة، ولكن القلب بما أودع فيه من الشهوة قابل للهوى والميل مع الشهوات، وفي سورة «النساء»، يقول ربنا ﷻ: ﴿**وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ**

﴿عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ۞ يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾.

رابعًا: وقلب المؤمن كحصنٍ له أبواب ولا يفتأ الشيطان يحاول اقتحامها وينتهز وجود ثغرات في الحصن، ولعل أوسع بابين في حصن القلب هما شهوتا الفرج والبطن، وتأتي بعد ذلك أبواب أصغر من هذين، والمؤمن يحاول سد تلك الأبواب التي منها الحسد والحرص، والغضب والحقد، والشبع والطمع، والعجلة وسوء الظن والكبر والإعجاب والرياء، والمؤمن يوقف على هذه الثغرات حراسًا من مكارم الأخلاق تقف متيقظة على ثغرات الشهوات، ولا تفتأ ترد الشيطان فيخنس متراجعًا.

ولعل من أيقظ الحراس الذين يطردون الشيطان الذكر والصلاة؛ لأنهما يغطيان أوقات الليل والنهار، ولا يكاد الشيطان يحبك مكائده حتى ينطلق صوت المؤذن فتكون الصلاة ناهية مستمرة منظمة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر، وفي «شرح السنة» للإمام البغوي يقول رسول الله ﷺ: «**مثل القلب كمثل ريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح**».

خامسًا: كل رذيلة لها عكسها من الفضائل والشيطان حين يهاجم المسلم يتخذ جنودًا من الرذائل ينفذ بها إلى ثغرات القلب كالشح المطاع، وشهوة الجنس، والحسد والحقد والجشع فيأتي المؤمن ويرصد على كل ثغرة خلقًا كريمًا يجندل رذائل الشيطان كأن يصعق الشح بالكرم المحتسب ويصرع الحسد والحقد بحب المؤمنين ويقضي على الجشع بالقناعة فيكتب الله له الرضا والقبول ثم إذا لقي وجه ربه تلقاه راضيًا مرضيًا ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨].

* * *

من أحاديث الآداب

فضل الصبر والشكر

حين يذوق المؤمن حلاوة الإيمان، وحين تخالط قلبه بشاشة الإسلام، تصبح حياته كلها خيرًا وكل أمره عليه بركة ونورًا ولن تقل منزلته عند الله عن إحدى مرتبتين: إما شاكرًا في الرخاء فينال منازل الشاكرين، وإما صابرًا في الشدة فيحظى بمراتب الصابرين، ولا شكَّ أن من أعلى مراتب الجنة والفوز مرتبة الشاكرين، ومثلها منزلة الصابرين، ولقد لاحظ مفسرو القرآن الكريم أن الله ﷻ ذكر كلاً من الشكر والصبر في الكتاب الحكيم في قرابة سبعين موضعًا، وهذا يعني أن المؤمن الذي يقابل النعمة بشكرها ويتجنب بطرها ومفاتنها لا يقل في منزلته عند الله من المؤمن الذي يبتلى فيصبر، ولا عجب فالمؤمن الغني الشاكر قد نجح في امتحان النعمة الذي يكون أحيانًا أشد من امتحان الفقر، بل لقد عرفنا كثيرًا من الناس ابتلوا بالشدائد فصبروا، فلما ابتلوا بالنعمة والغنى لم يتماسكوا لمغرياتها فأخفقوا في امتحان الرخاء.

ومن خصائص المسلم أن له أدبًا ربانيًّا رائعًا في شدائده ومحنه كما أن له أدبًا رفيعًا في غناه ونعمته، إنه في كلتا حالتي زمانه عبدٌ رباني يزينه الرضا والتسليم، ويؤدي في كلتا حالتيه ما أمره الله به من الصبر على اللأواء، ومن الشكر في السراء، وهذا ما عناه رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الذي رواه مسلم: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله عليه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خير له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا**».

ولقد جرّبت صنوف الناس في هاتين الفضيلتين (وأعني بهما فضيلتي الصبر والشكر)، فوجدت أن منبعهما واحد وإن كلا من الصبر والشكر ينبعان من الإيمان الصادق، ومن العنصر الكريم إن القلوب المؤمنة والأصول الكريمة تكبر المعروف الصغير، وتشكر على النزر اليسير، وحين يقلب لها الزمن وجهه تراها في البأساء عظيمة التحمل والجلد والصبر، وذلك مما يكبت الحاقد الشامت، ويهوِّن مصائب الدنيا، أما ذوو العقيدة المتذبذبة الضعيفة والأصول اللئيمة الساقطة فأولئك ربما قابلوا الفضل بالإساءة، واستقبلوا المحنة بالسخط.

والمتأمل فيما نقرؤه عن ديار الكفر وأدعياء الحضارة يرى أن أهل التمدن المزعوم في

أوروبا معظمهم صفرٌ من هاتين الفضيلتين، هناك لا يعرف الأغنياء إلا الإغراق في الشهوات الحيوانية، ولا يعرف المحرومون إلا اليأس والجريمة، وقد أشاد رسول الله ﷺ بالغني الشاكر وبين أنه يُحْسَد، أي: يغبط على ما هو فيه من النعمة والفضل، فقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه: «**لا حسد إلا في اثنتين: رجلٌ آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**».

وفي الحديث المتفق عليه ما معناه أن فقراء المهاجرين شكوا إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء تفوقوا عليهم في ميادين الأعمال الصالحة؛ لأنهم يصلون ويصومون كما يصلي الفقراء ويصومون ثم يتفوقون بما ينفقون من أموالهم ويعتقون فدل الرسول ﷺ الفقراء على التسبيح والتكبير والتحميد أدبار الصلوات؛ لكي يدركوا بهذه الأذكار درجات الأغنياء الشاكرين، فلما سمع الأغنياء بما دل النبي الفقراء عليه من الذكر فعلوا كما فعل الفقراء، فجاء الفقراء يشتكون إلى رسول الله ﷺ أن الأغنياء رددوا الذكر الذي علمه عليه الصلاة والسلام للفقراء وعندئذ لم يسع النبي ﷺ إلا أن يشيد بالأغنياء الشاكرين فقال: «**ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء**».

وحسبك أن الشكر من الصفات العلا لله ﷻ فالله ﷻ شاكر عليم وشكور حليم وغفور شكور لا إله إلا هو ما أوسع كرمه وحلمه يلهم عباده الأعمال الصالحة ويهديهم إليها وييسرها لهم، ثم هو يشكرهم عليها مع أنهم ما كانوا ليهتدوا لولا أن هداهم الله، ألا ما أعظم العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المهيمن، وهو يشكر عبده الضعيف الذي لا حول له ولا قوة.

ولقد كان نبيُّنا ﷺ أعظم الناس شكرًا لله، وأعظمهم صبرًا على البلاء ورضاء بالقضاء، ولا غرو؛ فقد كان ﷺ ملتقى فضائل الأنبياء اقتدى عليه الصلاة والسلام بجميع هدي أنبياء الله حين أوحى إليه ربه: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾، اقتدى بهم في صبرهم وشكرهم، فكان حقًّا سيد أولى العزم من الرُّسل ففي الصحيحين أن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليه- ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يُصبر أصحابه ويعدهم الفرج والنصر والتمكين فيقول: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهُ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

وقد روى الشيخان هذه القصة التي تدل على أن الصحابيات - رضي الله عنهن- كن مثالاً في الصبر والاحتساب وعظمة اليقين في قضاء الله وقدره. وخلاصة القصة أن أبا طلحة الأنصاري كان له ولد فمرض واشتد عليه المرض، وخرج أبو طلحة لبعض شأنه فقبض الصبي في غيبة أبيه، فلما رجع أبو طلحة قال لأم سليم وهي أم الصبي: ما فعل ابننا؟ فقالت: هو أسكن ما كان (تعني أنه ما كان في وقت من الأوقات أهدأ منه في ذلك الوقت) ثم قرَّبت إليه العشاء فتعشى وازيَّنت له فكان بينه وبينها ما يكون بين الرجل وزوجه.

فلما فرغ قالت: يا أبا طلحة، إن قومًا استودعوا أمانة، فلما جاء أصحاب الأمانة يستردونها منعوهم. أيجوز لهم هذا؟ قال: لا. قالت له: فاحتسب ابنك، فانطلق أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما كان من أمر أم سليم فدعا لهما رسول الله ﷺ أن يبارك لهما في ليلتهما. فحملت أم سليم من ليلتها تلك ورزقها ربنا ولدًا سماه رسول الله ﷺ عبد الله، وقد حكى أحد الأنصار أنه رأى لعبد الله بن أبي طلحة (ذلك المولود) تسعة من البنين كلهم قرأ القرآن، وقرأنا أن عبد الله بن أبي طلحة كان أبر الناس بوالديه.

إنَّ المؤمن إذا أصابته المصيبة تذكر سير الأنبياء - عليهم السلام- وعلم أن البلاء يسوقه الله للأصفياء من عباده ليعلي به درجاتهم في الجنة، ففي الحديث الذي رواه الشيخان: «**ما يصيبُ المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه**».

***

من أحاديث الآداب

فضل النوافـــــل

جاء في الصحيحين أن رجلاً من أهل نجد قدم على رسول الله ﷺ ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا من رسول الله ﷺ فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال له رسول الله ﷺ: «**خمس صلوات في اليوم والليلة**» فقال الأعرابي: هل عليَّ غيرهن؟ قال: «**لا إلا أن تطوع**». فقال رسول الله ﷺ: «**وصيام رمضان**» فقال: هل علي غيرهن؟ **قال**: «**لا إلا أن تطوع**» وذكر له الزكاة فقال: هل عليَّ غيرها؟ فقال: «**لا إلا أن تطوع**» فأدبر وهو يقول: لا أزيد على هذا ولا أنقصُ منه، فقال رسول الله ﷺ «**أفلح إن صدق**» وفي رواية: «**دخل الجنة إن صدق**».

أخي القارئ إذا وحَّدت ربك ﷻ فلم تشرك بعبادته أحدًا، وأديت الفرائض فقط متقربًا بها إلى رحاب كرمه، وتجنَّبت ظلم العباد فقد ضمن الله لك ألا يُعذبك بالنار، وذلك لأن حق الله على العبيد هو ما ذكرنا، وحق العبيد على الله ألا يعذبهم بالنار إذا هم فعلوا ذلك، ولكن إذا أحببت أن يحبك الله ﷻ وأن يرفع درجاتك في منازل الجنة؛ فلا بدَّ عندئذٍ أن تتقرَّب إليه بأكثر من أداء الفريضة فقط، وعليك عندئذٍ بنوافل من العبادة وأعمال الخير؛ إذ للصلاة نوافلها من الرواتب والوتر والتهجد والتطوع، وللزكاة نوافل من الصدقة وبذل المعروف وإطعام الطعام وإسقاء الماء، وللصوم نوافل من صوم التطوع، ولنستمع إلى هذا الحديث الشريف في فضل النوافل، ثم نتبعه بما ينبغي للمتنفل أن يتحلى به من الآداب ليكون بإذن الله من المباركين العتقاء، والموفقين السعداء.

- في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قضى أحدكم الصلاة** (يعني: المفروضة) **في مسجده؛ فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيرًا**»، وفي الحديث المتفق عليه: «**مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت**».

- وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛**

فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

- وفي سنن أبي داود ومسند أحمد قال رسول الله ﷺ: «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا**».

- وروى أبو داود بإسناد صحيح: «**صلاة المرء في بيته أفضل من صلاته في مسجدي هذا إلا المكتوبة**».

- وفي مسند أحمد: «**صلاة الرجل في بيته تطوعًا نور، فمن شاء نوَّر بيته**».

- وفي صحيح مسلم عن ربيعة الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**سلْ**» فقال ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة. فقال ﷺ: «**أو غير ذلك؟**» قال ربيعة: هو ذاك. فقال رسول الله ﷺ «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**».

أولاً: نعني بالنوافل في الصلاة كل ما عدا الفريضة المكتوبة من سنن ومستحبات وتطوعات، فالسنن من الصلوات: ما كان رسول الله ﷺ يحافظ عليه كالرواتب والوتر.

والمستحبات: ما كان ﷺ يذكر فضله من الصلوات لكنه لا يواظب عليه مواظبته على السنن الرواتب، كالصلاة عند دخول المنزل والخروج منه، وكصلاة ركعتين إذا نعس الجالس المنتظر للصلاة.

وأما التطوعات: فهي الصلوات التي يؤديها زيادة حين تلمس في نفسك رغبة في الصلاة كما لو كنت جالسًا تقرأ القرآن فلما فرغت رأيت أن تصلي ركعات تدعو الله فيها بقبول الأعمال وستر الحال وصلاح البال ونجاح العيال وحُسْن المآل.

ثانيًا: ونوافل الصلاة هي من أعظم نوافل العبادات أجرًا، ولقد كان السلف الصالح رضوان الله عليهم كما وصف الله عباده المؤمنين ﴿**تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ [السجدة: ١٦]. ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ**

﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]. تراهم بالليل منحنية أجسادهم على أجزاء القرآن قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وجباههم واستقلوا ذلك في جنب الله.

نوافل الصلاة كما جاء في حديث البخاري تصل العبد بربه وتكرمه بحبه، وإذا أحب الله عبدًا جعله من أوليائه، ونظمه في سلك خلصائه من والاه فقد والى رب العباد ومن عاداه فقد تعرض لحرب من الله ومعنى قوله تعالى: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**».

إنَّ العبد إذا أحبه الله بما يقدمه من نوافل العبادة بارك في أعضائه، وهداها ألا تصدر إلا عما يرضيه، فالأذن لا تسمع إلا ما يرضي الله، والعين لا تنظر إلى ما يحلُّه، واليد لا تبطش إلا إذا أمرها الله، والرِّجل لا تمشي أبدًا إلى ما يغضب، وبهذه المنزلة من مدارج السالكين يصبح المؤمن عبدًا ربانيًا لا يشغل حاسة من حواسه ولا جارحة من جوارحه إلا فيما يرضي حبيبه الذي تولاه، فلا غرو إذا شهدت عليه أعضاؤه يوم القيامة أن تكون له كلها شفيعة بين يدي ربه.

ثالثًا: من آداب نوافل الصلاة أن تنتهز الساعات التي لا يراك فيها أحد بالليل، ولا يتحدث عن عبادتك أحد، وإذا خلوت بحبيبك فانتهز فرصة التحلي، وقِف بالخشوع بين يديه، وناجه وادعه تضرعًا وخيفة، وأذرف بين يديه دموع الإنابة، فلله ما أجملها دموعًا تجلسك في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، ولا تصلِّ في أوقات الكراهة إلا صلاة لها سبب حتى لا تتشبه بعُبَّاد الشمس الذين يقفون ينتظرونها حين تتوسط كبد السماء، وحين ينحدر بها الأصيل صوب المغيب، وحين تطلُّ أوائل أشعتها مع طلوع الشمس.

وأخيرًا؛ فإياك أن تستكثر عبادتك، فمعروفه ﷻ لا يكافأ ولو قضيت عمرك ساجدًا له، ثم لتكن عبادتك قصدًا لتتمكن من الحفاظ عليها حتى يأتيك اليقين.

***

من أحاديث الآداب

الالتزام بالمنهج الإسلامي

من المؤسف حقًّا أن تصبح كلمة (المتطرفين) تعني في بعض الدول الإسلامية: الملتزمين لأوامر الله ورسوله، وقد يسميهم بعض أهل الأغراض والأمراض الرجعيين والمتشددين وهي تسميات يشهد الله أنها ظالمة وعلى نقيض الحق تمامًا؛ لأن الإسلام يكره التشدد والجمود والتطرف، ويحب الوسطية والاعتدال، يقول ربنا ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة:١٤٣].

ولكن أهل الأهواء لا يقنعهم التوسط والاعتدال في الأمور، بل يريدون أن يفرط الناس في شرفهم وأخلاقهم ومثلهم العليا ليقال هؤلاء قومٌ متحضرون، إنهم يرفضون التطرف نحو الفضائل، ولكن يعجبهم التطرف المنحاز إلى الانفلات.

إذا حجب مسلم ابنته وزوجته عن مخالطة الرجال وعن التعري في المحافل قالوا متطرف، وكذلك إذا صان عائلته عن التسيب والتمزق واتباع الشهوات، وحرص أن يربي أولاده على الاستقامة والصلاة وطاعة الله وصفوهم بالتطرف والتشدد، وأنهم يضيقون على أولادهم، ولقد طار الصليبيون فرحًا في أوروبا حين رأوا عددًا من أولياء الله تسيل أرواحهم على حبال المشانق وأعوادها بتهمة التطرف، ولما قتل في أحد الأقطار العربية صفوة من أعلام المسلمين رقص الصليبيون وعلقوا صور سفاحهم وشمتوا بالإسلام حين رأوا أهل الدعايات والكذب والنفاق والرذيلة يصورون المصلحين من المسلمين على أنهم عناصر إرهاب وتخريب ثم يسوقونهم إلى الموت، ولا ذنب لهم ألا أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد، حتى لقد أتى على أهل تلك الديار حين من الدهر قلبت فيه المقاييس فقال الشاعر يصف فوضى المجتمع:

ذو الدين في عرفهم تخشى غوائله ... فما يقرب إلا كل خمار
إذا سكرت ففي أمن وفي دعة ... وإن تصل فمحفوف بأخطار
حرية الشعب في أبواق دعوتهم ... حكم المباحث والإرهاب والنار

إذا رأوا حانة طاروا بها فرحًا وإن رأوا مسجدًا ثاروا بإنذار

إنَّ من يتهمون المسلمين بالتطرف يرون الاعتدال في مجاملة الكافرين، وعندهم أن الملازمين الخمر والقمار والنساء ومراقصة الأجنبيات كل هذا اعتدال وقصد وشطارة يستحق أهلها عليها التقدير، أما من يحارب المسكرات والاختلاط وخسارة الأموال فهو المتطرف الذي يُخشى ضرره وتحارب طريقته.

إنَّ إسلامنا كما تنطق آياته الحكيمات هو الشريعة المعتدلة، وأمتنا هي الأمة الوسط في السلوك والاقتصار والعقدية يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ [الإسراء: ٢٩]، ويقول جلَّ من قائل: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا**﴾ [الفرقان: ٧٦]. وفي الصلاة يكون الصوت وسطًا بين الجهر والخفوت يقول الله تعالى: ﴿**وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ [الإسراء: ١١٠].

- وفي الحديث المتفق عليه أن ابن مسعود ﷺ كان يذكِّر الناس في المسجد كل خميس فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. وفي سنن أبي داود أن صحابيًا من قبيلة باهلة أتى رسول الله ﷺ فزاره ثم غاب عنه سنة ثم عاد إلى رسول الله ﷺ وقد تغيرت هيئته فقال: يا رسول الله، أنا الباهلي الذي جاءك عام الأول، قال: «**فما غيرك؟**» قال: منذ فارقتك ما أكلت طعامًا إلا بليل، يعني بذلك أنه كان يداوم الصوم فقال له رسول الله ﷺ: «**لقد عذَّبت نفسك**»، ونصحه أن يصوم ويفطر.

- وذكرنا مرارًا الحديث المتفق عليه وهو حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ وكأنهم استقلوها، وذكر أحدهم أنه يقوم الليل أبدًا، وقال الثاني: إنه يصوم النهار أبدًا، وقال الثالث: إنه لا يتزوج أبدًا.

فلما حضر رسول الله ﷺ قال لهم: «**أما والله إني لأخشاكم لله، واتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

- وفي الحديث الذي رواه البخاري قال رسول الله ﷺ: «**إن الدين يُسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**» يعني انتهزوا في العبادة أوقات النشاط.

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**هلك المتنطعون**» والمتنطعون هم الذي يشددون على أنفسهم وعلى غيرهم في الدين في المواضع التي يحسن فيها التيسير.

- وفي سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال: «**خير الأمور أوساطها**».

- وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا**».

وللبيهقي أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**الهوا والعبوا فإني أكره أن يكون في دينكم غلظة**».

ومن أجل هذا كان رسول الله ﷺ يخرج زوجاته وبناته يوم العيد حتى الحُيَّض ليوسعن صدورهن ويشهدن الدعاء حتى لقد سمح لأمنا عائشة - رضي الله عنها- أن تتفرج على لعبة بالسلاح وقال: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة**»، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**روحوا قلوبكم ساعة فساعة**». وفي زيادة: «**فإنها إذا كلت عميت**».

ولقد رخَّص الإسلام في العبادة رُخصًا كصلاة القصر وكالجُمع وكالتيمم والمسح على الجورب والخف، فكان عليه الصلاة والسلام يحب أن يستمتع المسلمون بهذه الرحمة الإلهية، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال في هذا: «**إنَّ الله يحب أن تقبل رخصه كما يحب العبد مغفرة ربه**»، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاغْدُوا وَرُوحُوا، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ، وَالْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا**».

إنَّ المسلمين هم أهل القصد وأهل الاعتدال في معيشتهم، وفي مطعمهم وملبسهم وعبادتهم، أما المتطرفون فهم أهل الفساد والباطل والانحلال.

إن المسلمة المحتشمة الحافظة لنفسها ولأبنائها وزوجها هذه المرأة هي التي تسلك نهج القصد والاعتدال، أما المرأة التي تتبع كل ناعق، وتنخدع بكل بارق، وتبرز للرجال شبه

عارية، وتهمل بيتها لترود الأندية – أقول: هذه المرأة هي المتطرفة التي تقف على شفا جرف هارٍ قد ينهار بها في نار جهنم.

وإنَّ عائلة تطلق لأبنائها وبناتها العنان، ولا تذكرهم بشعائر الإيمان هي عائلة متطرفة منحازة إلى الشيطان، وأما العائلة التي تنشئ أبناءها وبناتها على الحياء والعفاف والصون فتلك هي العائلة المعتدلة المتحضرة الآمنة، هذا وإن الأديب أو الشاعر الذي يدعو أمته لاتباع المضللين، ويزين لهم طريق الشاذين والملحدين مثل هذا الأديب هو الأديب المتطرف الذي يميل بأمته نحو الهوى، ويزين لها طريق الدمار.

أما الأديب الذي يهدي إلى الحق ويحارب الزيغ وينبذ الهدم والإلحاد ويكشف حبائل الفساد؛ فهو الأديب الذي سلك نهج الاعتدال، وصفع وجه الضلال، وأرضى ربه ذا الجلال.

إنَّ المنافقين الذين يتربعون على منصة الحضارة المزيفة هؤلاء هم المتطرفون، أما أولئك الذين وُفِّقوا هدوا إلى كل طيب، ونفَّروا من كل خبيث فأولئك هم حماة الحقيقة، وأعداء الزيف.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

دروس من الهجرة النبوية الشريفة

منذ ثلاثة أيام ودَّعنا عام ألف وأربعمائة وثمانية، واستقبلنا عام ألف وأربعمائة وتسعة، وفي تقليب الأيام عبرة أي عبرة، وما أجلها في قول ربنا ﷻ في سورة «النور»: ﴿**يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ**﴾ [النور:٤٤]، وما أجدر أمة محمد ﷺ وهي خير أمة أخرجت للناس أن تتخذ من تعاقب السنين فرصة لمحاسبة النفوس، واستعراض الأحداث؛ لأن في اختلاف الليل والنهار عبرةً وآيات لأولي الألباب، ولقد خلوت إلى نفسي وأنا في استقبال عام مُقبل ووداع عام منصرم فطافت في الذاكرة عبر وذكريات أحببت أن يشاركني في استعراضها إخواني القراء؛ لأن فيها ذكرى نافعة لمن ألقى السمع وهو شهيد.

أولاً: يتذكر المؤمن في هذه الأيام مناسبة الهجرة النبوية أيام أُخرج النبي وصحبه من ديارهم وأموالهم، وخرجوا مهاجرين لله لا يلوون على زوجة ولا دار، تاركين وطنهم الغالي مرابع صباهم في أم القرى في منظر يقطع نياط القلوب، ولا غرو فالخروج من الوطن يعدل خروج الروح حتى لقد قرن القرآن الكريم بين فقد الوطن وفقد الحياة إذ يقول ﷻ في سورة «النساء»: ﴿**وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُمْ**﴾ [النساء:٦٦].

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن أهله لابد أن يخرجوه من مكة؛ لأن الإخراج من الوطن سنة من سنن الله في أنبيائه، ولقد أخبر ورقة بن نوفل رسول الله ﷺ في اليوم الأول من نبوءته أن قومه سيخرجونه وقال له: ما من نبي جاء قومه بمثل ما جئت قومك به إلا أخرجوه، وكان رسول الله ﷺ يعلم أن النبوة مركب صعب وأن أشد الناس بلاءً الأنبياء، وخروج المرء من وطنه يفقده مرابع حبيبة تحليها مآرب الشباب وذكريات الصبا، فكيف حين تكون الربوع المفقودة مكة المكرمة بحرمها الآمن ومشاعرها الحسان، كانت حبيبة إلى رسول الله ﷺ؛ لأن حب الوطن من كرم الأصل، ومن مظاهر الوفاء، وهو الذي كان من أكرم الأصول ومن منابع الوفاء، حتى لقد قرأنا أنه -عليه الصلاة والسلام- ألقى على مكة نظرة مودع ليلة

الهجرة وقال: «**والله يا مكة، إنك لأحب أرض الله إليَّ، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت**».

ولقد قصَّ ربنا ﷻ على رسوله ﷺ من أنباء الرسل ما ثبت به فؤاده، وعرف أن الهجرة شرف ناله أنبياء، لقد هاجر إسماعيل جد نبينا محمد ﷺ إلى وادٍ غير ذي زرع وغير ذي ماء، هاجر وهو في المهد، فتحوَّلت الجزيرة كلها ببركة النبوة إلى جنة غذت جياع الورى من زاد النبوة، وأنهلت عطاش الناس من منهل الهدى ودين الحق، وإذا الوادي غير ذي الزرع فردوس أغنّ.

أعجب بوادٍ بلا زرع ولا ثمرٍ ... غَذَّى جياع الورى من أكرم الزاد
ومَهْمَهٍ ظامئ حار الدليل به ... سقى الحيارى وأروى غلة الصادي

فلله درها قفرة روّت غيوثها ظمأ الحياة، وأهدت إلى الإنسانية كلها خيراتها الحسان.

لقد ذكرتني الهجرة والعام الهجري الجديد أن الهموم الكبيرة تساق إلى الهمم الكبار لتصهرها في أتون التضحيات الجليلة، وتخرجها من بوتقة الشدائد عبقرية الصقال متألقة الروح حقًّا إن للهجرة معنى متجددًا يهتف بأمة الإسلام ألا إن طريق البطولة هي طريق الكرامة والمجد الحقيقي هو ما تناله الأمم بأيدٍ قوية خشنة مخضبة بالدماء لا بأكفٍّ رخصة تمتد في ذلة إلى الأعداء مفاوضة على حقها الصريح.

ثانيًا: هذا، وذكرني العام الجديد بآماله المعتمة ما كان في زميله المنصرم من آلام مؤلمة، لقد كان العام الذي مضى عامًا حافلاً بالأحزان عانت فيه الأمة المحمدية مرارة انقساماتها، وأثخنتها مؤامرات أعدائها، وسال الدم المسلم متدفقًا في البوسنة والهرسك وبلاد الهند وبلاد الروس وبلاد الفلبين، وشهدت ديار الإسلام في أفريقيا ولبنان والسودان حروبًا داخلية جرى فيها الدم الزكي بلا ثمن.

ثم كانت الطامة الكبرى تلك المذابح التي اصطلى نارها الإخوة المسلمون في العراق وإيران، ثم ما كان في ربوع فلسطين والمسجد الأقصى من إذلال للمسلمين تحت سنابك الكفر، وما كان من قتل الرجال وضرب النساء وتكسير أطراف الأطفال في الأرض المقدسة المباركة يتولى كبر الجريمة فيها أذل شعوب الأرض على مرأى ومسمع من أكرم أمة أخرجت للناس كأنما ماتت عزة الإسلام في قلوب أهله ورضوا لكرامتهم المهدرة أن يُقابل عدوان

الكافرين بالسب والشجب والاستنكار والاحتجاجات المتهالكة يرد بها المسلمون على هجمات الكفر الحاقدة اللئيمة، وقديمًا قال الشاعر:

إنَّ ألفى قذيفة من كلام ... لا تساوي قذيفةً من حديد
الشكايات والخطابات لغوٌ ... وهدير السِّلاح بيت القصيدِ

نعم لقد تذكرت محنة المسلمين طول العام الذي انتهى بالأمس، وتساءلت في لهفة ودهشة: لماذا تهون دماء المسلمين في أنحاء الكرة الأرضية؟ ولماذا يوجه الاضطهاد إلى المسلمين بالذات؟ ولماذا يسمى الإسلام في كثير من الدول تطرفًا؟

وجاءني الجواب صريحًا مؤلم الصراحة: إن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ وسار على هديه سلفنا الصالحون ذلك الإسلام لم يزل به الكفار والصليبيون والصهاينة والمنافقون حتى غيبوه عن الساحة وحجبوه عن الحكم، فعاد القرآن مهجورًا، وأصبح المقرئ في محطة إذاعة اليهود لا يبالي أن يقرأ القرآن، بل ويسمع المسلمين نداء الحق: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ [الأنفال:٦٠] يفعل هذا لأنه يعلم أن المسلمين في وادٍ وأن القرآن في وادٍ آخر، لقد أصبح القرآن ترجيعًا مطربًا بعد أن كان نداء حماسيًا باعثًا ملهبًا.

ثالثًا: لقد كانت الهجرة النبوية الشريفة دروسًا باهرة وحكمًا بالغة علمتنا: صدق الجهاد وصبر الرجال. وعلمتنا أن لله جنودًا ينصر بهم أنبياءه وأصفياءه، وهم أوهن ما يكونون، لقد حمى رسول الله ﷺ بعش حمامة وبيت عنكبوت، رد بهما حشود الباحثين، ولو نظروا تحت أقدامهم لرأوا رسول الله ﷺ وصاحبه، إنه موقف دل على قدرة الله -جل وعلا، وعلمهم أن الذي حمى الأعزل وصاحبه قادر أن يهزم أحزاب الشرك وحده.

فلا غرو أن جعل ربنا ﷻ من حادثة الهجرة درسًا في الثبات والجهاد ومواجهة الباطل في شجاعة لا ترهب الموت ﴿**إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾

[التوبة:٤٠، ٤١].

لا عجب أن كان النبي المهاجر أعظم الناس إيمانًا بالنصر وحسن العاقبة، ألم تره عليه الصلاة والسلام وهو يعدُ سراقة بن مالك بسواري كسرى حتى وهو مهاجر يكاد المشركون يتخطفونه وصاحبه، ولبس سراقة بعد اثني عشر عامًا من هذا الموقف سواري كسرى، ألا ما أجمل دروس الهجرة؛ إذ تعلم المؤمنون حفظ الأمانات وردها إلى أهلها، واتخاذ الصاحب المؤمن، ونقل المعركة إلى الموقع الأكثر صلاحية واستراتيجية، صلى الله على ذلك المهاجر العظيم الذي جعل الله غايته فرد عنه كل مكيدة، ووقاه كل شر، وجمع من حوله مواكب المؤمنين، فكن مع الله أخي القارئ وإذا حزبك أمر من الأمور فاعلم أن الله معك. واجعل شعارك في كل ضائقة كلمة مباركة تنبعث من منطلق الأمل والثقة: ﴿إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾.

وأخيرًا؛ فما أجدر المؤمن أن يدين نفسه ويحاسبها: ماذا كسبت في عام كامل من عمل صالح؟ ثم ماذا اقترفت من معاصي؟ لأن الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني.

❊❊❊

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

نفحات من أخلاق المصطفى ﷺ

الحمد لله الذي أعزنا بدين الإسلام، وأشهد أن لا إله إلا الله، أمرنا أن نقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، إمام الدنيا وسيد الأنام، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وأصحابه أعلام الحق ومصابيح الظلام.

أما بعد؛ فشبابنا اليوم كثيرًا ما ينخدعون برجال من الغرب كالممثلين ولاعبي كرة القدم، حتى إن بعضهم ليحفظ أسماء الكثيرين من الممثلين والأدباء الكفار واللاعبين، مع أن القدوة التي رسمها الله لنا وأمرنا أن نأتسي بها هي رسولنا محمد ﷺ.

إنَّ من أعظم آداب المؤمن أن يتدبر سيرة رسول الله ﷺ ويجلس إليها جلسات متفهمة مفكرة ليُحسن القدوة، وينال شرف المؤتسين الذين ذكرهم في محكم آياته إذ يقول في سورة الأحزاب: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب:٢١].

لقد اجتبى ربنا رسله خيرة من خلقه؛ ليكونوا أوعية عظيمة للرسالات العظيمة، والله أعلم حيث يجعل رسالته، ورسول الله ﷺ كان سيد المرسلين وخاتم النبيين، وجاءت شريعته تمامًا على ما أحسنه الأنبياء، وجاء قرآن ربه مهيمنًا على جميع الكتب السماوية، وجاءت أخلاقه خلاصة لكل فضائل الأنبياء.

لقد عدَّد له ربه ﷻ في سورة «الأنعام» ثمانية عشر نبيًّا من بينهم أولو العزم، ثم قال الله له بعد ذلك: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ ويقينًا أنه اقتدى بهم كما أمره الله؛ لأنه ﷺ كان خلقه القرآن.

ولهذا؛ فإن من يقتدي بمحمد ﷺ فقد اقتدى بكل نبي، وتحلى بكل فضيلة، واهتدى إلى أعظم الأخلاق، ولهذا فقد اخترت في هذه أحاديث من كلام رسول الله ﷺ تدور كلها حول أسمى أصول الذوق الحضاري الرفيع أقدمها إلى أبنائي من الشباب المسلم المثقف، ومنهم

أولئك الذين يرون أن الحضارة الاجتماعية الأكيدة هي تلك التي تلتمس عند أهل الغرب وتلتقط من فُتَاتِ موائدهم: في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان من تواضعه يذكر أيامه الصعبة في صباه فيقول: «**كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة**». أي: يرعاها بالأجرة، وكان يقول: «**إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في شعاب مكة**».

ووصفه أبو سعيد الخدري أنه كان شديد الحياء لا يفوه بكلمة تجرح شعور إنسان، ففي الحديث المتفق عليه أنه كان أشد حياءً من العذراء في خدرها. إذا رأى شيئًا يكرهه ارتسم إحساسه على وجهه الكريم. وكان عليه الصلاة والسلام أحسن الناس أخلاقًا كما روى الشيخان، وكان يقول كما روى مالك رحمه الله: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» وكان كما روى مسلم أرفق الناس بخادمه، قال أنس وكان ممن خدموه: أرسلني رسول الله ﷺ في حاجة فقلت أمر على الأولاد في السوق وهم يلعبون، فوقفت عندهم وإذا رسول الله ﷺ يقبض بقفاي من ورائي فالتفت وإذا هو يضحك ويقول: «**يا أنس، اذهب حيث أمرتك**». ولقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيء صنعته لم صنعته. أو لشيء تركته لم تركته. وفي صحيح البخاري أنه عليه الصلاة والسلام ما رُئي مستجمعًا ضاحكًا حتى يرى لهاته، أي: أنه لم يكن يضحك ضحكة عالية مع أنه كان أكثر الناس ابتسامًا.

وكان عليه الصلاة والسلام يكره التشدد والتنطع فقد روى الشيخان أنه ما خير قط بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه. وكان يأكل عند الفقراء أخشن الطعام فلا يعيبه، ففي الحديث المتفق أنه عليه الصلاة والسلام ما عاب طعامًا قط، وكان إذا حزبه أمرٌ صلى ويقول بين السجدتين ما يرجو به تفريج الغم: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَاجْبُرْنِي وَاهْدِنِي وَارْزُقْنِي**».

وكان أعف الناس عن اقتناء حطام الدنيا، وحسبك أنه كما جاء في الحديث المتفق عليه مات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، وكان يكره المستكبر الغليظ، ففي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام قال يصف أهل النار: «**كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُتَكَبِّرٍ**» وكلها بمعنى الغليظ الجافي، وكان يحب أهل العدالة والتواضع والعمل والعفاف.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط**

موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال».

أمَّا عن الذوق الاجتماعي الرفيع؛ فحدث عن رسول الله ﷺ ولا حرج، فقد كان أحرص على مشاعر الناس، وأعظم رعاية لحقوقهم، فلكل إنسان عنده حق معلوم من الأدب والاحترام، وهو أمر تعلمه منه أصحابه الأجلاء، حتى إن صاحبه الصديق رضي الله عنه كان يقول لعائشة وهي ابنته: (يا أم المؤمنين) كان أكرم الناس للرحم، فقد فرش ثوبه للشيماء أخته من الرَّضاع، وشفعها في ذراري هوازن، وكان يقول: «**عمُّ الرجل صنو أبيه**»، ويقول: «**الخالة في منزلة الوالدة**»، وكان أرأف الناس بالضعاف، يوصي بإكرام البنات وحسن كفالتهن وبالأيتام، ففي سنن أبي داود أنه ﷺ قال: «**من ابتلى من هؤلاء البنات بشيء كن له سترًا من الناس**». ويقول: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله وكالقائم بالليل والصائم بالنهار**». ويقول: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** (ويضم السبابة إلى الوسطى)»، وكان عليه الصلاة والسلام يحث أصحابه على نصرة الضعيف، جاء في مسند أحمد: «**من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر أن ينصره أذله الله على رءوس الأشهاد يوم القيامة**».

وكان أكرم الناس معاملة لخلطائه من ضيف وجار وصديق يقول ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «**إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعهد جيرانك**» ويقول كما روى ابن ماجه: «**إن من السنة أن يخرج الرجل مع الضيف إلى باب الدار**». وفي الحديث المتفق عليه يقول في أدب الصُّحبة: «**إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث**».

وكان يوصي بإجابة الدعوة يعني إلى الطعام ويعدها من حق المسلم على المسلم ويقول: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**»، وكان يكره السباب ولو وجه إلى صنم أو مشرك، وأنكر على من سب قتلى بدر وهم في القليب؛ لأن السباب سلاح الضعفاء، ولأنك إذا سببت صنم مشرك فلربما سب إلهك، وكان عليه الصلاة والسلام يقول: «**ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء**».

وقد قرأت في سنته عليه الصلاة والسلام أنه كان يكره الشماتة؛ لأن الإنسان لا يخلو من تقلبات الزمن ومجريات القدر، جاء في سنن الترمذي: «**لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك**».

وأخيرًا؛ فقد أوصى الموظفين أن يسهلوا أمور الناس وبخاصة موظفو الشئون المالية؛ لأن المال أمر مهم، فقد جاء في الحديث الصحيح: «**إن الخازن المسلم الذي يعطي ما أمر به كاملاً طيبة به نفسه يكون كأنه متصدق من ماله**»، ألا ما أجمل أن يعود الشباب المسلم إلى سيرة نبيهم ليروا فيها قدوات تحرز قصب السبق في ميادين الخالدين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [ن: ١- ٤]، ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾، ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح:٢٩].

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

فضل الاهتمام بلغة القرآن

المؤمن يحبُّ الأدب، ونعني الأدب بنوعيه الأدب الذي يقصد به مكارم الأخلاق، وسمو الشيم، وذوق المعاملة، وشرف النفس، والأدب الذي يعني روائع القول من شعر حيٍّ رفيع المستوى، ومن نثر فني شريف المضمون رشيق الصياغة، ولا غرو أن يحب المؤمن الأدب، وذلك لأن الله ﷻ جعل معجزة محمد ﷺ أدبًا رفيعًا وبلسان ذلك الأدب الرائع بلغت رسالة الله وفصلت أوامره ونواهيه، ووقف المشركون إزاء ذلك الأدب عاجزين عن محاكاته مأخوذين بمحكم آياته.

إنَّ الأدب العربي هو أشرف أدب على وجه هذه الأرض؛ لأنه نشأ منذ العهد الجاهلي، ومعظمه مؤدب، وحسبك أن تقرأ جوامع الحكمة، وروائع الآداب في المعلقات العشر ما عدا أبياتًا قليلة في معلقة امرئ القيس.

لقد كان الشعراء في الجاهلية معظمهم حكماء وشيوخ قبائل وسادة وأصحاب رأي، ولهذا كان الصحابة يحفظون أشعار الجاهلية ويروونه ويتمثلون به، وكان رسول الله ﷺ ربما تمثل بشطر بيت فيقول أحيانًا: «**ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّد**»، وهو وإن لم يكن شاعرًا لكن أقواله من النثر الأدبي الفني الذي يقتبس من سنا القرآن وبلاغته.

والمسلم في هذه الأيام مطالب بآداب إزاء أدبه ولغته؛ لأن هنالك مؤامرة لئيمة على أدب العرب يحيكها اليهود وأولياؤهم من خونة العرب، وشعار هذه المؤامرة: هدم الفصحى وإشاعة العامية ليباعدوا بين المسلمين وبين قرآنهم، وليضعفوا تفاهم المسلمين حين يتكلم كل شعب بعاميته، فلا يفهم الخليجي عامية السوري، ولا يدرك المصري لهجة المغربي، ولا يستوعب السوداني منطق الليبي، وهكذا تصبح الأمة العربية أوزاعًا مشتتة، ومزقًا متهرِّئة.

إنَّ الأدب العربي سياج اللغة العربية وعاء القرآن وسعته لفظًا ومعنى، ولم تضق ببلاغته وغاياته وظلاله، وحرس الله بها وحيه المنزل وكلامه المعجز، ومن هنا فإن أي تآمر على أدب

العرب ولغتهم هو تآمر على دين الله وكتابه وسنة رسوله من أجل أن يطفئوا نور الله بأفواههم، لكن الله ناصر حزبه وحافظ كتابه أركسهم عبر التاريخ، وهو جل شأنه مذلهم ومركسهم ومتم نوره، ولو كره المجرمون.

وإني موجزٌ هنا نقاطًا فيما يجب أن يلتزمه المسلم إزاء الأدب العربي واللغة العربية.

أولاً: أن يتعوَّد المسلم تذوق الأدب المبدع والإعجاب وتعشق القول البليغ؛ لأن رسول الله ﷺ كان يحبُّ الشعر الشريف الأهداف حتى لقد روى أنه عليه الصلاة والسلام حين سمع قول كعب بن زهير في مدحه:

إن الرسول لنور يستضاء به ... وصارم من سيوف الله مسلولٌ

خلع بردته وألبسها كعبًا مع أنه كان قد أهدر دمه. نعم لم يكتف بالعفو عنه حتى كافأه.

وقدم عليه النابغة الجعدي مسلمًا في وفد قومه فألقى على مسامعه الشريفة رائيته التي مطلعها: سما بك شوق بعدما كان أقصرا. فلما وصل إلى قوله:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له ... حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال ﷺ: «**هذا هو السحر الحلال**»، واستمر الشاعر يقول:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو بعد ذلك مظهرا

فقال له عليه الصلاة والسلام: «**وإلى أين المظهر بعد السماء يا أبا ليلى؟**» فقال النابغة: إلى الجنة. فقال له: «**قل إن شاء الله**» ثم قال له: «**لا فض فوك**».

وكان -عليه الصلاة والسلام- يعجب بشعر الخنساء ويستزيدها ويدعو لشعرائه وبخاصة حسان بن ثابت فيقول: «**اللهم أيده بروح القدس**».

ثانيًا: ما أجمل أن يحفظ المسلم طائفة حسنة من أبيات الشعر في الأدب والحكمة يجمل بها مجالسه، ويتمثل بها في مناسباته، ويلقيها على مسامع أبنائه، قال معاوية ﷺ: روّوا أبناءكم جيد الشعر، فوالله لقد هممت بالفرار مرات يوم صفين فما ثبت إلا حين ردّدت أبياتًا لعمرو بن الإطنابة الخزرجي:

أبت لي همّتي وأبى بلائي ... وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي ... وضربي هامة البطل المشح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

وكان -عليه الصلاة والسلام- يقول: «إن من البيان لسحرًا»، و«إن من الشعر لحكمة» وكان يسلي أصحابه وهم يحفرون الخندق فيردد معهم أرجوزة لأحد شعرائه:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن العدو قد بغوا علينا ... وأن أرادوا ذلنا أبينا

وكان يمد صوته بكلمة أبينا فيرددها بعده الصحابة الكرام، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا برزوا لمنازلهم من الأعداء ارتجزوا بما يثيرون فيهم الشجاعة؛ كقول أحدهم:

إنّ ألفي قذيفةٍ مِنْ كَلامٍ ... لا تساوي قذيفةً من حديد

وكقول الآخر:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فأيد الأنصار والمهاجرة

وهنالك أبيات كثيرة تستحق أن يتمثل بها كقول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وكقول أبي الطيب:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وكقول عمرو بن معد يكرب:

ولو نارًا نفحت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

وكان أحد الصالحين يقول: هممت أن أسجد لله سجودًا طويلاً أظل أكرر فيه أبياتًا لأبي فراس الحمداني أخاطب بها ربي:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب

إذا صحَّ منك الود فالكلُّ هين وكل الذي فوق التراب تراب

وأخيرًا؛ فقد نشأ في هذه الأيام شعراء سفهوا لغتهم، وجهلوا بلاغتهم، وساروا وراء شهواتهم ومعاصي أعدائهم، فطلعوا بما سموه الشعر الحر والشعر المنثور والقصيدة النثرية؛ فخربوا الأدب وعاثوا في لحنه العذب، ودنسوا بأشعارهم أدبنا فدعوا صراحة إلى قلة الأدب مثل هؤلاء لا بدَّ للمسلم أن ينبذهم نبذ النواة، ويرمي بشعرهم رمي اللَّقي، ويسقطهم من عداد الأدباء.

***

من أحاديث الآداب

مؤهلات القيادة والمسئولية

من آداب المؤمن ألا يطلب المنصب إلا إذا آنس من نفسه أنه كفء له، وأنه أمين عليه، وأن ينوي في نفسه أن يخدم الأمة بمنصبه، فلا يتخذ المسئولية سلمًا لقضاء شهواته وتحقيق مكاسبه ونزواته.

لقد طلب يوسف من ملك مصر أن يجعله على خزائن الأرض (أي: وزيرًا للمالية) طلب ذلك بلسانه؛ لأنه كان يعلم أن مصر كانت مقبلة على سبع سنوات عجاف سيأكلن كل مخزون الأقوات. وكان عليه السلام يؤنس من نفسه محافظة على تلك الأمانة وعلمًا بأسرارها ودقائقها ﴿**قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف: ٥٥].

ولما قال سليمان عليه السلام لرجاله وجنوده أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين انتدب عفريتًا من الجن للمسئولية وقال: ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ [النمل: ٣٩]، فطلب مهلة نصف يوم؛ لأنه لم يزد على طاقته ولم يدع فوق قدرته ثم أضاف قائلاً: ﴿**وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾، فهو معتمد بعد الله على قوته وأمانته.

وقد عرض الله جل جلاله لمؤهلات القيادة في قصة اختيار ملك لبني إسرائيل بحيث يكون صالحًا لقيادة معركة حاسمة ضد الكفر، فجعل مميزات القيادة العلم النافع والجسم السليم،

ولكن بني إسرائيل طلبوا أن يكون الملك ذا مال واسع وعدوا المال مقومًا وحيدًا للقيادة، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٤٧]، ومع ذلك لم يستسلم بنو إسرائيل لقول نبيهم حتى وعدهم أن ينزل عليهم تابوت تحمله الملائكة ليقتنعوا.

ولعل الإخوة قد لاحظوا من مجموع الكلام أن المنصب القيادي يتطلب علمًا واسعًا وجسمًا قويًا سليمًا وقوة شخصية وأمانة في تحمل المسئولية وحفاظًا على تلك الأمانة.

لقد شهدت مرحلة من حياة الأمة العربية من مهازل الحكم الحزبي، رأيت بعيني أن الحكم كان يتعاوره حزبان إذا حكم أحدهما طرد رجال الحزب الآخر من مناصبهم وولَّى كل محسوب عليه وطبّال بمدحه والدعاية له، ثم إذا دارت الدائرة وتغير الوضع تشرد رجال الحزب المهزوم في الشوارع وعاد عزهم ذلاً، وفي أثناء ذلك يضيع الشعب في حمآت الانتهازية، وتضيع الأموال في الأيدي الملوثة، وتضييع المسئولية حين توسد الأمور إلى غير أهلها، ويصبح مؤهل القيادة هو عبادة الأشخاص، والتضرع للعبيد وعلاقات النساء وشراء الضمائر وتضييع الكفاءات، حتى لربما عين عالمٌ مختص بالشئون العسكرية على وظيفة مدير لمسرح، ولربما عين خبير في الطيران على وظيفة مسئولٍ عن مصنع للمعلبات، لقد كان المنصب أيام سلفنا الصالحين عبئًا ثقيلاً، وحسبك أن عمر ﷺ كان يطعم المسلمين في عام المجاعة لحمًا ثم يعود إلى بيته، فلا يجد إلا خبزًا وزيتًا، وكان إذا حصل لديه خير بدأ يوزعه على الناس قبل آل الخطاب، وإذا كان التعب والتكليف بدأ بنفسه وبأقاربه، وكان خير من يقدر حجم المسئولية فيقول: إني لو أعلم أن جَدْيًا سُرق بسقي الفرات لخفت أن يحاسب الله به عمر، وكان يكره أن يطلب الصحابي منصبًا ويحذره أنه ربما لا يطيق أداء حقه.

ومن توجيهات نبيِّنا إزاء الوظائف والمصائب ما جاء في مسند أحمد أنه عليه الصلاة والسلام كان يتخوف على أمته من خصال عدَّ منها: إمرة الصبيان، وكثرة الشُّرط والرشوة في الحكم، واتخاذ القرآن للغناء.

- وفي مسند الديلمي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بقوم خيرًا ولى عليهم حلماءهم** (أي عقلاءهم) **وقضى بينهم علماؤهم، وجعل المال في سمحائهم، وإذا أراد الله بقوم شرًّا ولى عليهم سفهاءهم، وقضى بينهم جهالهم، وجعل المال في بخلائهم**».

وكان رسول الله ﷺ يكره إمرة النساء لما يترتب عليه من تحكيم العواطف وغياب الفكر المنطقي المسئول، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن ولاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون خلتهم وحاجتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته**»، ولما سمع معاوية ﷺ هذا الحديث خصص رجلاً لحوائج الناس.

- وفي الحديث المتفق عليه تحذير لأهل المسئولية؛ إذ يقول رسول الله ﷺ: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لهم إلا حرَّم الله عليه الجنة**»، وفي الحديث المتفق عليه تحذير من استعمال العنف على الرعية قال رسول الله ﷺ: «**إن شر الرعاء الحطمة**» ومعناه: أن شر الحكام العنيف.

- وفي الحديث الذي رواه مسلم حثٌّ للموظفين القائمين على مصالح العباد أن يرفقوا بالمسلمين، وألا يعقدوا معاملاتهم بل يسهلوها ويرشدوهم فيها لأقرب الطرق، فإنك لتذهب إلى بعض الموظفين في أمر معين فيعقد عليك ثم إذا ذهبت إلى الموظف الذي يليه سهله عليك وقضاه، وقد دعا رسول الله ﷺ على الموظفين الذين يعقدون معاملات الناس فقال في الحديث الذي رواه مسلم: «**اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ؛ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ؛ فَارْفُقْ بِهِ**».

- وحذَّر رسول الله ﷺ أن نفرًا من حكام السوء يصلون إلى المراكز عن طريق العنف والقتل، وأن المسلمين إذا ارتضوهم سلط عليهم القتل إلى يوم القيامة فقد جاء في مسند أحمد وسنن أبي داود: «**إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة**».

- وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ نصح أبا ذر فقال له: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، لاَ تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلاَ تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ**».

أمانة المسئولية

الموظفون جميعًا من الملك والرئيس إلى المراسل والخادم يقفون على ثغرات من مصالح المسلمين، مكلفين من الله ﷻ أن يحافظوا عليها، مؤتمنين عليها من رب العباد أن يؤدوها على خير الوجوه، ويبذلوا في إنجازها غاية الجهود، فإن هم فعلوا ذلك فقد استبرءوا لأنفسهم وصانوها من عذاب الله، وإن هم تخاذلوا عن مصالح البلاد والعباد؛ فهم عندئذٍ عند ربهم خونة.

وإذا كان بعض الناس قد دفعوا رشوات من أجل أن يتولوا مناصب ليسوا أهلاً لها، فإن كثير من الناس كانوا يرفضون المناصب العالية وهم لها أكفاء خوفًا على أنفسهم من إغراء المنصب وتبرُّج الدنيا وطغيان الشهوات، من أجل ذلك رسم الإسلام للمسلم آدابًا يتبعها إزاء المناصب والوظائف إذا اتبعها أجزل الله له الثواب ونجاه من العقاب.

وأول هذه الآداب: أن يعتبر الوظيفة مسئولية وأمانة وعبئًا؛ لا أن يعتبرها مصلحة ومكاسب وشهرة، فلقد كان عمر ﷺ يأسى غاية الأسى إذا ذكر ثقل المسئولية، ويقول: لو أن جَدْيًا ضاع بسقي الفرات لخشيت أن يحاسب الله به عمر، وعلى الرغم من أنه ضحى بنومه وراحته في سبيل المسئولية المقدسة فقد سُمع قبيل وفاته وهو يقول: ويل لعمر وويل لأمه إن لم يغفر الله له. إن الحاكم العادل الذي يحكم بالعدل وينشره ويقدر أمانة المسئولية بالجد والعمل ومخافة الله هذا الحاكم يظلله الله يوم القيامة في ظله، وذلك لأن الرعية استظلت في كنفه الرحيم المنصف فسلمت من حرور الظلم والابتزاز واستغلال النفوذ، يقول رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وقد عد في مقدمتهم: «**إمام عادل**».

ثانيًا: أن يتذكر فداحة الظلم وسواده واختناق الناس به يوم القيامة، ويخاف أشد الخوف من دعوة المظلوم.

إنَّ بعض الناس يسيرون في ساحات القيامة عميانًا، وبعضهم يتخبط في الظلمات لا يخرج منها. هؤلاء هم الظالمون كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أن رسول الله

ﷺ قال: «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

وفي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وابن ماجه يقول رسول الله ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ، وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ ﷻ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**».

وفي صحيح مسلم يقول رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما والاهم**».

ثالثًا: أن يعتبر الموظف نفسه خادمًا لمراجعيه، مرشدًا لجاهلهم، حافظًا لأوراقهم، معينًا لضعيفهم، وألا يبخل عليهم بوقته أو جهده أو نصحه، وأن يوسع صدره لأسئلتهم، فلا يضيق بهم ولا ينهرهم، وأن يسوي بينهم في اهتمامه ووجهه وكل معاملته.

إنَّ بعض الموظفين لا يعرف التواضع ولا الكلم الطيب، ولربما شغل نفسه عن مراجعيه بالرد على مكالمة خاصة حيث يطول الحديث الفارغ عن سهرة الأمس ولعبة الورق وقضاء الليلة المقبلة وطعام العشاء، والويل كل الويل لمن يذكره بطول صف المنتظرين وضياع مصالح المسلمين سيقول الموظف: وهل تعلمني شغلي؟! أنت وحدك أرجع غدًا لن تنتهي معاملتك اليوم.

وإذا قلت له: إن لك رئيسًا ينصفني منك، رمى في وجهك المعاملة، وهو يقول: اذهب إلى رئيسي وانظر هل ينفعك، ولربما تذهب إلى رئيسه فتلقاه على شاكلته، فلا تملك عندئذ إلا أن تذل نفسك للمتغطرسين، وتعتذر إليه محطمًا كرامتك على صخرة الصلف.

إنَّ مثل هذا الموظف توعده ربنا ووعده الحق ألا يشمه ريح الجنة ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من عبد يسترعيه الله ﷻ رعية فلم يحطها بنصحه إلا لم يرح رائحة الجنة**».

وقد دعا رسول الله ﷺ للموظف الميسر كما دعا على المعقد المعسر فقال: «**اللهم مَن ولي من أمور المسلمين أمرًا فيسَّر عليهم فيسِّر عليه، ومَن ولي من أمورهم أمرًا فعسَّر عليهم فعسِّر عليه**».

رابعًا: ألا يحتجب دون حوائج المسلمين بل يظل فاتحًا مكتبه ما دام الوقت وقت عمل؛ ففي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من إمام** (وينطبق هذا على كل مسئول) **يُغلق بابه دون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحجته ومسكنته**».

إنَّ هذا الأمر مما ابتلى به المسلمون وبخاصة من الموظفين الكبار؛ فكثير ما تذهب لمراجعتهم فيقال لك: إن عنده اجتماعًا أو هو لديه شغل، فإذا وقعت منك نظرة نحو مكتبه حين يفتح وجدته يشرب الشاي مع رجل أو رجلين من أصحابه، إنَّ مثل هذا يلعب فعلاً بالنار؛ لأن الأحاديث الواردة في هذا الباب مخيفة حقًّا، ففي مسند أحمد بإسناد حسن: «**من ولي أمر المسلمين ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذوي الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون إليها**».

ولأحمد ولأبي يعلي أن رسول الله ﷺ قال: «**من ولي من أمر المسلمين شيئًا فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة**».

خامسًا: أن يبتعد في كافة أحواله عن السحت والحرام والرشوة مهما تلونت أساليب الحرام، إن الموظفين في إدارات المناقصات والمشتريات قد يتعرضون إلى تيارات من الحرام تجرفهم إلى نار جهنم، وقد حذرهم رسولنا ﷺ من كل أسباب الحرام، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.

ولقد حدثني بعض العاملين في إدارة المناقصات أنه رجع يومًا إلى بيته وإذا بالباب سيارة فخمة تساوي مائة وخمسين ألف ريال، وإذا رجل واقف عندها يسلمه مفتاحها ويقول له: هذه السيارة هدية متواضعة مع تحيات وأشواق من فلان، فقال صاحبنا وكان نزيهًا: ولكن لماذا لم يهد إلي صاحبك شيئًا قبل أن نقلت إليَّ المناقصات، رد على صاحبك سيارته وقل له: هذه ليست هدية وإن سميتها هدية ولكن اسمها رشوة.

وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش (وهو الذي ينسق بينهما لإتمام عملية الرشوة) ما أجمل أن تكون وظيفة المرء عونًا على طاعة الله تسير بصاحبها إلى جنة الله ورضوانه، وما أقبح أن تكون الوظيفة سبيلاً إلى المفاسد والمعاصي فتلقي بصاحبها في جهنم،

أسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين صلاح الأمر وحلال الرزق وفوز الدارين، فإنَّ الوظيفة أمانة إن لم يؤد الموظف حقها كان خائنًا لله ورسوله ومن وظَّفه.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، **﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۞ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۞ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۞ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [المؤمنون: ٨- ١١].

(٢) أمانة المسئولية

إنَّ ولاية أمر المسلمين أو ولاية قطاع من قطاعاتهم تُعد من الأمانات العظيمة والمسئوليات الجسيمة، يقول النبي ﷺ كما جاء في صحيح مسلم: «**المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين، والمقسطون على أهليهم وأولادهم**».

وفي القرآن الكريم صلة بين الأمانة والمسئولية، يقول الله -تعالى- في سورة «النساء»: **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾**.

والعدل في المسئولية من أعظم القربات إلى الله ﷻ جاء في الحديث الذي رواه أبو حنيفة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أرفع الناس يوم القيامة إمام عادل**»، وفي الحديث الصحيح: «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله**»، وقد عدَّ رسول الله ﷺ أولهم فقال: «**إمامٌ عادل**».

ومقياس العدل في المسئولية أن يحب الناس المسئول عنهم، ويدعوا له؛ فذلك مقياس يدل على نجاح المسئول، والناس كلهم مسئول، وإنما تتفاوت المسئولية كبرًا وصغرًا، يقول النبي ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته**».

وجاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم** (أي: تدعون لهم)، **ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**»، وقد وضح النبي ﷺ أن سيد القوم لا يستنكف عن خدمتهم ففي الحديث الذي رواه أبو نعيم يقول النبي ﷺ: «**سيد القوم خادمهم**».

هذا؛ وعلى المسلم أن يتقرب إلى الله بطاعة ولي أمره سواء رئيسه المباشر أو إمامه الكبير، يقول النبي ﷺ كما جاء في سنن الترمذي: «**من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله**»، وإهانة السلطان معناها الاستهانة بأوامره والخروج عليه.

هذا؛ ومن دلائل النجاح في المسئولية سواء على المستوى الكبير أو على مستوى الإمامة أن يكون المسئول في البيت هو الرجل؛ لأن الرجل قوام على المرأة، وقد لاحظت أثناء عملي في تعليم الأولاد والبنات أن البيت الذي يكون المسئول عنه رجلاً ترى فيه الولد والبنت في مستوى طيب من الجدية والاجتهاد، أما البيت الذي تتحكم فيه امرأة فإن الخراب يكون باديًا بوضوح في أخلاق أبنائه وبناته، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لن يفلح قومٌ ولوا أمرهم امرأة**».

هذا؛ ومن أدب المؤمن ألا يلهث وراء الإمارة والسعي إلى الوظائف ذات المسئولية الكبيرة، وإنما إذا جاءته دون يسألها؛ فعليه عندئذٍ أن ينشط لها مستعينًا بالله، جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال لأحد الصحابة: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لاَ تَسْأَلِ الإِمَارَةَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»، وفي صحيح مسلم: «**لن نستعمل على عملنا من أراده**».

إنَّ كثيرًا من الناس ربما دفعوا رشوات للحصول على المناصب، فإذا أحرزوها؛ فقد تنقلب عليهم غضبًا ووبالاً، وإن المسئول عن جماعة من المسلمين يحمل إزاءهم أمانة كبرى، يقول النبي ﷺ: «**أيما امرئ ولى من أمر المسلمين شيئًا لم يحطهم بما يحوط به نفسه لم يرح رائحة الجنة**».

وفي سنن أبي داود: «**من ولاه الله من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن حاجاتهم وخلتهم**

وفاقتهم، احتجب الله يوم القيامة عن حاجته وخلته وفاقته».

وفي صحيح البخاري: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**».

وفي الحديث الذي رواه أبو حنيفة يقول النبي ﷺ: «**الإمرة أمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها من حقها، وأدى الذي عليه فيها**».

وقد دعا رسول الله ﷺ للموظف الذي يرفق بالمسلمين كما دعا على الموظف الذي يشق عليهم ويعقد أمورهم، جاء في صحيح مسلم : «**اللهم مَن ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومَن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارق به**».

هذا؛ وعلى صاحب المسئولية ألا يسند أمرًا أو يوسده إلا إلى الكفء المقسط ففي مسند أحمد: «**مَن استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه؛ فقد خان الله ورسوله والمؤمنين**».

وفي موضع آخر: «**مَن ولي أمر المسلمين شيئًا فأمَّر عليهم أحدًا محاباة له؛ فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً**».

وعلى مَن ولي أمرًا من أمور المسلمين أن يبتعد برزقه عن الرشوة، ففي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: «**لعن الله الراشي والمرتشي والرائش**».

هذا؛ ومن آداب المؤمن إذا ابتلى بمسئول ضعيف الأمانة أن يحسن معه النصيحة والإرشاد ولا يشغب عليه شغبًا يسقط مروءتها ففي الحديث المتفق عليه: «**من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات فميتة جاهلية**».

هذا؛ ومن آداب المؤمن ألا ينصح رئيسه على ملأ، فإن النصيحة على ملأ قد تأتي بنتائج عكسية، وفي مسند أحمد أن النبي ﷺ قال: «**مَن أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبده له علانية**»، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى ما عليه.

هذا؛ وعلى المؤمن أن يعتبر أموال الدولة حرامًا عليه ففي مسند أحمد أن إبل الصدقة مرت على رسول الله ﷺ فأهوى بيده إلى وبرة من جنب بعير فقال: «**ما أنا بأحق بهذه الوبرة**

من رجل من المسلمين»، وروى الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**من أخون الخيانة تجارة الوالي في رعيته**» أي يعتبر الوالي الولاية تجارة وفرصة للكسب الحرام.

هذا؛ ولا تجوز بحال معاملة الناس بالقسوة والشدة، ففي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: «**يخرج رجال من هذه الأمة في آخر الزمان معهم سياط كأنها أذناب البقر يغدون في سخط الله ويروحون في غضبه**».

اللهم ارزقنا العدل والإحسان في كل أمورنا، وأبعدنا من الظلم وأبعده منا لنلقاك راضيًا عنا يا رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢].

من أحاديث الآداب

المروءة مقرونة بالفتوة

من آداب المؤمن أدب يعشقه جميع الناس.. أدب يدلُّ على كلِّ الفضائل النفيسة، ويجعل صاحبه أبهى من نوافح الروض وزهر الربيع ومواقع الغيث الرحيم ومقدم الوسمي المبارك في أوانه.. هذا الخلق هو المروءة المقرونة بالفتوة، وإنما قرنت الخلقين؛ لأنهما لا يكونان إلا متلازمين فكل صاحب مروءة لا بدَّ أن يكون ذا حظ من الفتوة والمروءة كما يبدو من لفظها مشتقة من المرء، أي: الإنسان، وبهذا التوجه يكون معنى المروءة: كمال الإنسانية، فذو المروءة هو الكامل الإنسانية، حتى إن نفسه لتكون النموذج الحي لسمو الإنسانية وبلوغها أرقى المدارج في نبل الإنسانية وصفائها وعطفها وكرمها.

صاحب المروءة هو الذي تلقاه دوامًا حاضر المعروف فما يُدعى إلى عمل من أعمال الخير إلا كان أول سامع وأقرب مجيب ثم تراه بعد ذلك سامي النفس عن كل نوازع الشر ودوافع الحقد وسواد الانتقام ولؤم الحسد، وقد لخص رسول الله ﷺ في عبارة حلوة فقال لأحد الصحابة: «**صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعف عمن ظلمك**» وروي أن رسول الله ﷺ سأل رجلاً من ثقيف: ما المروءة؟ فقال الرجل: المروءة سخاء النفس وصلة الرحم

وصلاح الدين وإصلاح المعيشة فقال رسول الله ﷺ: «**هكذا هي عندنا في حكمة آل داود**».

والحق أني آنس كثيرًا وأتفاءل حين تكون لي حاجة عند موظف أو مسئول وأعلم أنه موصوف بالمروءة، فأذهب والأمل يتألق في وجهي بأني سأعود بحاجتي وبكرامتي وبصداقة جديدة، وعلى النقيض من ذلك حين أضطر إلى رجاء إنسان لا مروءة عنده؛ فإني حينئذٍ أذهب وكلي تخوُّف أن أعود بلا حاجة مقضية ولا كرامة مرعية، جاء في حديث ابن عباس قال: رفع إلى عمر بن الخطاب ﷺ رجل في جرم فأراد أن يعاقبه فأخبر أن الرجل له مروءة، فقال عمر: استوهبوه من صاحبه، أي: اطلبوا من صاحبه أن يعفو عنه ويهب العفو لله ورسوله.

وأما الفتوة المصاحبة للمروءة؛ فلها مظاهر أبرزها نجدة الملهوف والصبر في مواطن الشجاعة والإقدام على المكروه لإحقاق الحق وإبطال الباطل. إذا رأيت امرأة مسلمة يريد أن يعتدي عليها بعض الفسقة فلم تبال بعددهم ولا بقوتهم واندفعت كالأسد تدفعهم بوسائلك فأنت عندئذ من أهل الفتوة، ولو كنت في الثمانين من العمر إنك عندئذ فتى بروحك وأخلاقك ودينك. أما من يرى منكرًا يقترف فيمر كأن شيئًا لا يعنيه فذلك تنقصه الفتوة والمروءة معًا.

سأل معاوية جلساءه عن المروءة، فقال عبد الله بن هاشم بن أبي قاص: المروءة هي بذل المال وصحة الدين والدفاع عن المظلوم، وأما الفتوة؛ فالجرأة في الحق والصبر عندما تزل الأقدام.

إنَّ كلمة الحق والإسراع إلى المعروف وجلوسك على باب بيتك ليراك أصحاب الحاجات... كلها من المروءة، وقد كنت إلى عهد قريب أرى بعض الرجال -رحمهم الله- على أبواب بيوتهم عندهم قهوتهم وشايهم وما يسَّره الله من رطب أو تمر أو لبن لا يمر بهم مسلم إلا قالوا له: تفضل، تُرى أين ذهب ذلك الجيل ذو المروءات، وخلف من بعدهم خلف يقفل بابه ويقول لزوجه وأولاده: إذا سألكم عني سائل فقولوا: غير موجود؟! وبهذه الطريقة يتمكن من أكل حقوق العباد ويحرم من شرف المروءة والفتوة.

إنَّ مواقف المروءة تختلف على حسب الأحوال، فالمروءة في السفر بذل الزاد وسماحة النفس والبشاشة مع قليل من المزاح واجتناب المجادلة، أما في الحضر أن تكثر تلاوتك للقرآن، وأن يُرى بيتك مترددًا للإخوان، ومن تمام المروءة عفاف المرء عن كل حرمة من حرمات الناس، وحسن الخلق مع الضعاف والصبية وتفريح الأطفال وبذل الزاد وخصوصًا لذوي الحاجات. وإتحاف الجار ببعض محبوب الطعام لا من الفضلة ولكن من البداية.

وما أجمل ما سنَّه الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- حين أمر الأئمة أن يتلوا في خطبهم آية كريمة يمكن أن تسمَّى (آية المروءة) وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾، وكان الناس يقولون: لا دين لمن لا مروءة له، هذا ولعل كسب المال الحلال والعناية به هما أيضًا من المروءة؛ لأن الفقير يعجز كثيرًا عن قضاء حوائج الناس وتحمل تكاليف الكرم.

ولقد حدثني بعض إخواننا أنه احتاج يومًا فقصد ابن أخيه وكان ذا مال فرده ابن أخيه خائبًا، وعلم أحد جيرانه بما حصل له مع ابن أخيه فذهب إليه ليلاً وسمر معه وقال له: يا فلان، سمعت من زوجي أن بعض الأشرار سرقوا بسطتك التي تبيع منها وأنك لم تجد حين رجعت شيئًا من حلواك وبضاعتك، فقال: الرزق بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله. فأخرج من جيبه ما يعادل ثمن البضاعة وأوعيتها من الخصف وأدخلها في جيب صاحبه وقال له: ناشدتك الله لا تخبر أحدًا، وإذا توفر لديك مال فتصدق به عنك وعنا. وانصرف الجار ذو المروءة وصاحبه يقول: رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك.

إن اليهود في هذه الأيام ينصبون للإسلام شركًا ليخلوا أهله من المروءة، إنه يضربون المسلمات على مرأى من المسلمين، ويكسرون أطراف الأطفال على مرأى من العرب، ويسوقون الشباب المسلم إلى غيابات السجن، والمؤمنون ينظرون خالين من دوافع المروءة ونخوات الفتوة، وقد طال الأمد وأخشى أن تقسو القلوب عن حوافز الشرف، وكأني والله بالإسلام في هذه الأيام يرسل صيحاته من أفواه المظلومين صارخًا بكل صوته لأصحاب المروءات أين أنتم من مروءات السلف وفتوات الغر الميامين.

***